أشباح الحب المفقود

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: أشباح الحب المفقود
مراجعة لغوية: رنا أبوالغيط
تــأليـــــــف: محمد محمود عبد السّلام
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح | القــطـــــع: 21X14
النــاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع | سنة النشر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 10283 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 9 - 628 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-628-9

أشباح الحب المفقود

رواية

محمد عبد السّلام

إهداء

إلى زوجتي الحبيبة، التي كانتْ دائمًا الجزء الهادئ في فصولي المُضطربة، هي مَن شاركتني الصمت حينَ عجزت الكلمات، وأمسكت بيدي حينَ كاد القلم أنْ يسقط، لولا حضوركِ في عالمي ما استطعتُ كتابة هذهِ القصّة.

شُكرًا لأنَّكِ كُنتِ الحكاية الأجمل، ومازلتِ.

*****

رغم زحام القطار الشديد، وجدا مكانًا فارغًا ليجلسا متقابلين، جلس أمامها ما يُقارب الساعة والنصف، يتأمل هذا المخلوق الذي طالما تمنّى أنْ ينظر إليهِ عن قُرب، وفي صدرهِ الكثير من الحكايا، والتي يُريد أنْ يحكيها دُفعةً واحده؛ فعنده تراكمات سنوات من الذكريات التي لا تعرف (ليلى) شيئًا عنها!

جلس أمامها يتأمل وينظر في صمتٍ ويسمع الصوت العذب، الذي يحكي عن قصاصات أنيس منصور.

أه.. لقد بدأت غيرته وكرهه لهذا العبقري (أنيس منصور)؛ لمُجرّد وجود قصاصات من الجريدة بينَ يديها.

لم يَكُن يعرف (يوسف) حينها ما معنى الحُبّ العُذري، والذي بالمناسبة يكثر ذكره كنوعٍ من الغزل في الأشعار، والذي يبتعد عن وصف المحاسن الجسديّة، بل يقتصر فقط على وصف المشاعر تجاه الحبيب ووصف آلام البُعد، ولكنَّهُ كان كذلك وأكثر.

في إحدى القُرى الهادئة بمحافظة الغربية، حيثُ الحقول الخضراء تمتدّ كسجادة طبيعيّة تحت سماءٍ زرقاء صافية، نشأ (يوسف) وبدأت طفولته البسيطة، كانت أيَّامهُ الأُولى مليئة بالبراءةِ والدهشة، حتّى بدأت أولى شرارات الوعي تلمع بعقلهِ الصغير خلال مرحلته الابتدائيّة.

في تلكَ الفترة، تعوّدَ (يوسف) النظر إلى (ليلى)، تلكَ الفتاة الهادئة التي كانت تجلس في صف البنات في الفصل المُشترك.

كانت ليلى جزءًا من عالمهِ اليومي، حتّى أنَّهُ كان يرافقها أحيانًا في طريق الذهاب إلى المدرسة، التي تقع في قرية مجاورة، وفي بعض الأحيان كان يعود معها ومع مجموعة من الأصدقاء، في طريق مليء بالضحكات والأحاديث البريئة.

يقول (يوسف) أنَّه ما زال يستطيع أنْ يحكي عن تفاصيل تلكَ الأيَّام بدقّةٍ وكأنَّها حدثت بالأمس، رغم مرور السنوات الطويلة.

كانت البداية في المرحلة الابتدائية، مُذ تعوّده على النظر إليها في الفصل، حتّى لاحظ بعض الأشقياء هذا الأمر، وبدأوا يرمون النظرات ويطلقون التعليقات الساخرة عليهِ، لكنَّهُ فضّلَ اختيار الصمت على الردّ، فلم يردّ ولم يُلقي بالًا لكلامهم، ويكأنَّهُ يعيش في عالمٍ آخر!

يحكي (يوسف) أنَّه في أحد الأيَّام وأثناء العودة من المدرسة، حدثَ أمرٌ غريب في القرية؛ فقد أفلت ثورٌ هائج من أصحابه، وبدأ يركض

بجنونٍ عبرَ الحقول والشوارع، مُتنّقلًا من قريةٍ إلى أُخرى، تجمّع أصحاب الثور وأصدقاءهم، وحمّلوا سيّارات النصف نقل بالبشر والسكاكين والبنادق، وانطلقوا في مطاردة محمومة خلف الثور، تجمّع أهل القرية صغارًا وكبارًا، لمشاهدة النهاية الغامضة لهذا الثور الهائج، بعد أنْ نزل الثور إلى مجرى الماء المجاور للقرية؛ حيثُ تباطأت حركته، فما كان من أحد الشهود إلَّا أنْ حملَ بندقيتهُ وأطلق النار على رأس الثور، بينما انهال آخرون عليهِ بالسكاكين في الماء لذبحه، ثُمَّ قاموا بلّفِ الحبل حول رقبته وأخرجوهُ ذبيحًا.

لكنَّ (يوسف) لم يَكُن مُهتمًا بمتابعة هذا المشهد الدموي، كان غارقًا في عالمهِ الآخر لا يرى وجوه النّاس المتجمّعة، ولا يتذكر مَن حضر أو مَن غاب.

كان كل ما يذكرهُ هو (ليلى)، التي كانت واقفة وسط الجموع، وكيف حرّكت يديها على رقبتها وقالت لمَن بجوارها: ذبحوهُ هكذا.

كانت كلماتها تتردد في أُذنيه، وكأنَّها جزءًا من مشهد سريالي لا ينتمي إلى الواقع!

في تلكَ القرية الصغيرة، حيثُ الحياة تسير ببطءٍ وتناغم مع إيقاع الطبيعة، كانتْ أيَّام (يوسف) تمتلئ بالتفاصيل الصغيرة التي تُشكّل عالمهُ الخاصّ.

فبعد أنْ ينتهي من لعب الكرة مع أصدقائه، يعود إلى المنزل؛ حيثُ تنتظره أُمّهُ بوجبة عشاءٍ بسيطة لكنَّها لذيذة، غالبًا ما تكون مكوّنة

من خبز بلدي ساخن مع جبنة بيضاء أو فول مدمس، ورُّبما بعض الخضروات الطازجة من الحقل المجاور.

كانتْ رائحة الطعام تملأ المنزل، وتختلط مع صوت الرياح، الذي يعبر من خلال النوافذ المفتوحة.

في المساء، يجلس (يوسف) مع أسرته في الغرفة الرئيسيّة، حيثُ يتم إشعال مصباح الجاز، الذي ينشر ضوءًا خافتًا يُلقي بظلالٍ هادئة على الجدران، يروي الأبّ قصصًا من الماضي عن أيّام الشباب، وعن الأجداد الذين عاشوا في نفس القرية، وعملوا في الأرض بجدٍّ وكفاح.

كانتْ تلكَ القصص تنسج خيوطًا من الحكمة والتاريخ في ذهن (يوسف)، الذي يستمع باهتمام، وكأنَّهُ يُحاول فَهم العالم من خلال كلمات أبيه!

أمَّا في الليل وعندما يخلد الجميع إلى النوم، يستلقي (يوسف) على سريرِه الصغير ناظرًا إلى السقف؛ حيثُ تظهر ظلال أغصان الأشجار التي تهزها الرياح خارج النافذة، يُفكر في (ليلى)، في نظراتها الهادئة، وفي الطريقة التي كانتْ تتحرّك بها، كانت بالنسبةِ لهُ لغزًا جميلًا، شيء لا يستطيع تفسيره، لكنَّهُ يشعر بأنَّهُ جزء هام من عالمه.

يتذكر كيف كانت تبتسم أحيانًا، وتُلّوح لهُ من بعيدٍ عندما يلتقيان في طريق المدرسة، كانت تلك اللحظات البسيطة تملأ قلبهُ بالدفء، وكأنَّها شمعة صغيرة تُضيء ظلام الليل!

وفي أيَّام العُطلات، تتحوّل القرية إلى مكانٍ أكثر حيويّة، فلأطفال يلعبونَ في الشوارع التُرابيّة، بينما النساء يجتمعنَ في حلقاتٍ صغيرة لتبادل الأحاديث والأخبار.

يعود الرجال من الحقول حاملينَ معهم محصول اليوم، بينما تنتشر رائحة الخبز الطازج من الفرن البلدي الذي يعمل طوال اليوم، كانتْ تلكَ الأيَّام مليئة بالفرح والضحكات؛ حيثُ يلتقي الجميع في ساحة القرية ليشاهدوا مباريات كرة القدم التي يُنظمها الشباب، أو ليشاركوا في الأغاني الشعبية التي تملأ الأجواء بالبهجة والفرح.

لكنَّ الحياةَ في القرية لم تَكُن بهذا الهدوء على الأغلب، ففي بعض الأحيان تحدُث مشاجرات بينَ العائلات، أو تظهر خلافات حول ملكية الأرض أو المياه، فتترك أثرًا في نفوس الناس، لكنَّها سرعان ما تختفي مع مرور الوقت، وكأنَّها غيمة عابرة في سماءٍ صافية.

لقد أحزنت تلكَ الخلافات (يوسف) في أحيانٍ كثيرة، لكنَّهُ يعلم أنَّ الحياة ستستمر، وأنَّ القرية ستظلّ دائمًا مكانًا للسّلام والتسامح في النهاية.

ومع مرور السنين، كبر (يوسف) وبدأ يفكر في المستقبل، كانتْ القرية بالنسبةِ لهُ مكانًا آمنًا، لكنَّهُ قد شعر بأنَ هُناكَ عالمًا أكبر ينتظرهُ خارج حدود الحقول والطُرق الترابية.

كثيرًا ما كان يحلم بالسفرِ إلى المدينة، ليرى كيفَ تبدو الحياة هناك، ولينهل من علومها ومعارفها، لكنَّهُ في نفس الوقت يعلم أنَّ القرية ستظلّ دائمًا جزءًا منه، مهما ابتعد.

قد شكلت تلكَ الذكريات والأيَّام البسيطة التي قضاها بين الحقول والأصدقاء هويّته، وجعلتهُ يشعر بأنَّهُ ينتمي إلى شيءٍ أكبر من نفسه.

بعد العودة من المدرسة يذهب (يوسف) إلى الساحة المجاورة لمنزلهِ؛ ليلعب الكرة مع أصدقائهِ الثلاثة أو الأربعة، تلكَ الساحة التي اتخذها الأطفال مسرحًا لمعارك كرة قدم مُصغرة، حيثُ يتجمع الأطفال ويشكلون فريقين، وتنتهي المباراة عندما يُسجل أحد الفريقين أربعة أهداف أو هدفين علي حسب الاتفاق، كانت الكرة المُستخدمة في الغالب مثقوبة وبداخلها كرة بلاستيكيّة منفوخة، لكنَّ ذلكَ لم يُقلل من حماسهم أبدًا.

أحبَّ (يوسف) دور حارس المرمى فكانَ يستمتع برمي نفسهِ على الأرض لصدّ الكُرات.

أطلقَ عليهِ الأصدقاء لقب (تولدو)، تيّمُنًا بحارس المرمى الإيطالي الشهير.

كانتْ تلكَ الأيَّام مليئة بالراحة والهدوء، لا تفكير في المستقبل ولا مسؤوليات، فقط كرة القدم والضحكات والأصدقاء.

أيَّامًا بسيطة لكنَّها الأجمل في ذاكرة (يوسف)، الذي ما زال يحتفظ بتفاصيلها في قلبه.

كانَ الحذاء البلاستيكي المُستخدم للعب أشبه بمحاولةٍ لتقليد حذاء رياضي حقيقي، لكنَّهُ لم يُخفِ فقره وبساطته، لونه الأبيض أو الرمادي الباهت بدا وكأنَّهُ فقدَ روحهُ بعد أشهُرٍ من الركض على الأسفلت والتراب، خامته قاسية، غير مرنة، تُصدر صوتًا خفيفًا مع كُلّ خطوة وكأنَّها تحتج على الاستخدام!

أطرافه مهترئة، ونعله قد بدأ ينفصل عن الجسم من الأمام، حتّى أنَّ خيوط الرباط كانتْ تمُرّ من ثقوبٍ بالكادِ تُمسكها، الرباط نفسه لم يَكُن من نفس الحذاء أصلًا، رباطًا طويلًا بلونٍ مُختلف، رُّبما من حذاءٍ قديم، يلتف بعشوائيّةٍ ليُبقي الحذاء ثابتًا على قدمِ صاحبه.

وبرغم شكله المتعب، إلَّا أنَّهُ يتمتع بحضورٍ خاصٍّ بينَ الأطفال، فهو الشريك في كُلّ مباراة، الشاهد على كُلّ هدف ضائع وكُلّ كرة اصطدمت بالحائط.

دائمًا ما كانَ يعودُ مغطىً بالغبار، لكنَّهُ جاهزًا ليُلبس من جديد.

في كل مباراة يلفت الأنظار أكثر، زملاؤه بدأوا يتفاخرون بوجودهِ في فريقهم، ويعتمدون عليهِ لحماية المرمى في اللحظات الحاسمة، أصوات التصفيق، نظرات الإعجاب، وحتّى كلام المُعلّمين العابر عن موهبته.

كُلّ هذا كانَ وقودًا لصغيرٍ بدأ يشعر أنَّ لديهِ شيئًا مُميّزًا.

تلكَ اللحظات وسط التراب والضحكات وصيحات الأطفال، زرعت فكرة برأسهِ لم تُفارقهُ وقالَ في نفسه: لِمَ لا أشترك في نادي الغربية الرياضي؟

يُمكن أنْ يكونَ هذا هو الطريق الحقيقي، أو البداية الحقيقيّة.

وهكذا، بحماس طفلٍ يرى في نفسهِ شيئًا يستحقّ الفرصة، بدأ حُلمهُ يخطو أُولى خطواتهِ نحو المجهول.

في آخر سنوات المرحلة الابتدائية، بدأ قلب (يوسف) يميل نحو الحلم الصغير، لم يَكُن يتخيّل نفسهُ مُهاجمًا يُسجل الأهداف، بل حارسًا يتصدّى لها، يذود عن المرمى بثقةٍ وشجاعة، يرى في كُلّ قفزةٍ لهُ على أرض الحارة بدايةً لحُلمٍ كبير.

حينَ سمع أنَّ نادي الغربية لكرة القدم يستقبل الناشئين، لم يتردد، لم يَكُن يملك حتّى تيشيرتًا رياضيًّا مُناسبًا، فاستعارهُ من أحدِ أصدقائه،

وذهبَ بخطواتٍ مليئة بالحماس، وكأنَّ العالم سيفتح لهُ الباب أخيرًا!

لكنَّ الواقع كانَ أقل ممّا حلم به، لا أحد يستقبلك، لا أحد يسألك عن اسمك أو مركزك أو حلمك، فقط مجموعة من الأطفال تُترك في ملعب جانبي دونَ إشراف، دونَ تنظيم، كأنَّهم يلعبونَ للفراغ.

لم ييأس (يوسف) فعادَ مرّة، واثنتين وثلاثًا، ظلّ مُنتظرًا أنْ يُلاحظ أحدهم ما فيه، أو أنْ يسألهُ على الأقل ما المركز الذى تلعب به؟

لكنْ لا شيء تغيّر، والملعب ظلَّ كما هو، يزدحم بالحالمين في حين غياب المُهتمين.

وفي يومٍ من الأيَّام ودونَ إعلان، قرر ألَّا يعود، لا لأنَّ الحلم سقط، بل لأنَّ الطريق إليهِ بدا مسدودًا من البداية، فهم (يوسف) حينها درسًا صغيرًا، وهو أنَّ الشغف لا يكفي، وأنَّ بعض الأماكن لا تعرف كيف تُميّز مَن يستحق.

وضع القفازات جانبًا، وودعَ التيشيرت المُستعار، ثُمَّ أغلق ذلكَ الباب إلى الأبد، ووجّهَ كُلّ طاقته نحو الدراسة والتعليم، لم يعُد هُناكَ وقت للملعب، ولا مكان للأمل الذي لا يسمعهُ أحد.

قرر (يوسف) أنْ ينجح بطريقٍ آخر، بطريقٍ يصنعهُ وحده، لا ينتظر فيهِ مَن يفتح لهُ الباب.

في المرحلة الإعداديّة، حدث تحوّل كبير في حياة (يوسف)، ليسَ على المستوى التعليمي وحسب؛ بل على المستوى العاطفي أيضًا، إذ انتقلت (ليلى) التي هي جزءٌ من طفولتهِ وذكرياتهِ الأُولى، إلى مدرسةٍ أُخرى بقريةٍ بعيدة بعد انتهاء المرحلة الابتدائية.

كانَ فراقها صعبًا على (يوسف)، الذي اعتاد على رؤيتها يوميًا، وعلى تلك النظرات الخاطفة التي كانا يتبادلانها في الفصل المشترك، لكنَّ هذا الفراق بدلًا من أن يُثبّط من عزيمته، أصبح دافعًا قويًا لهُ ليثبت نفسه، ورُّبما ليُظهر لها ولو من بعيد أنَّه قادر على التفوّق والتميُّز.

في المرحلة الإعدادية، ظهر في حياة (يوسف) شخصية أثرت فيهِ تأثيرًا جذريًّا، وغيّرت من نظرتهِ للدراسة وللحياة بشكلٍ عام، كان هذا الشخص هو مُدرس الرياضيّات (الأستاذ شاهين)، الذي لم يَكُن مُجرّد مُعلّم عادي، بل كان قدوةً حقيقيّة ليوسف وللعديد من طُلّابه.

كان الأستاذ شاهين مهندسًا في الأصل، لكنَّهُ قرر أنْ يتفرّغ للتدريس بعد أنْ شعر برغبةٍ قويةٍ في نقل معرفته وخبراتهِ إلى الأجيال الصغيرة.

لقد تميَّزَ بشخصيةٍ جذابةٍ وفريدة؛ إذ يشرح الدروس بطريقةٍ مبسطةٍ وممتعة، ممّا جعل الطُلّاب يتعلّقونَ بهِ ويشعرون بالحماس لتعلُّم الرياضيّات، والتي كانت تُعدُّ مادةً صعبة ومُعقدة بالنسبةِ للكثيرين، لكنَّهُ وبفضلِ نبوغهِ استطاعَ تحويلها إلى لعبةٍ ذهنيّةٍ ماتعة، فيُقدّم الأمثلة العمليّة من الحياة اليوميّة، ويشرح المفاهيم المُعقدة بطريقةٍ تجعلها تبدو سهلةً وواضحة.

لقد نالت تلكَ المادة (الرياضيّات) اهتمام (يوسف)، إذ وجد في الأستاذ (شاهين) مصدر إلهامٍ كبير.

لقد برعَ الأستاذ (شاهين) في شرحِ الدروس بالإضافةِ إلى مُشاركتهِ الطُلّاب قصصًا عن حياته، وكيفية تحقيقهِ للنجاح رغم الصعوبات التي واجهها، أيضًا حدّثهم عن كيفية استخدامهِ للرياضيّاتِ في عملهِ كمهندس، وكيفَ كانت هذهِ المادّة مِفتاحًا للعديدِ من الفُرصِ في حياته.

كانت تلك القصص تمنح (يوسف) رؤيةً أوسع للمستقبل، وتجعلهُ يُدرك أنّ الرياضيّات ليستْ مُجرّد أرقام ومعادلات، بل هي أداةٌ قوية يُمكنها أنْ تُغيّر حياته.

لكنّ الأثر الأكبر الذي تركهُ الأستاذ (شاهين) في (يوسف) قد تجاوزَ حدود الرياضيّات؛ إذ كان يُؤمن بأهميّة التفكير النقدي والإبداع، ويُشجع طُلّابه على طرحِ الأسئلة والتفكير خارج الصندوق.

لقد كان يقول دائمًا: لا تخافوا من ارتكاب الأخطاء، لأنّ الأخطاء هي التي تُعلّمنا كيفية الوصول إلى الحلول الصحيحة.

لقد مُنِحَ (يوسف) الثقة في نفسهِ بفِعلِ تلكَ الكلمات، كما جعلتهُ أكثر جُرأة في التعامُل مع المسائل الصعبة.

في أحدِ الأيَّام، وبعد انتهاء الدرس، طلب الأستاذ (شاهين) من (يوسف) البقاء لفترةٍ قصيرة، قال لهُ: يوسف، أنا أرى فيكَ طالبًا موهوبًا لديهِ إمكانيّات كبيرة.

لا تتوقف عند حدود المنهج الدراسي، ابحث عن المزيد، اقرأ كتبًا خارجيّة، وحاول دائمًا أنْ تفهم العُمق الحقيقي لما تتعلّمه.

كانتْ تلكَ النصيحة بمثابة شرارةٍ أشعلت حماس (يوسف)، وجعلتهُ يبدأ في البحث عن كُتبٍ مُتقدّمةٍ في الرياضيّات، وكذا في العلوم الأُخرى.

أصبحَ (يوسف) وبمرور الوقت أكثر تعلُّقًا بالأستاذ (شاهين)؛ إذ يراهُ قدوةً لهُ في الحياة، لا لكونهِ مُعلّم، بل كشخصٍ نجح في تحقيق أحلامه رغم التحديّات، وكإنسانٍ يؤمن بقيمة العِلم والمعرفة.

قد لاحظَ الأستاذ (شاهين) تطور (يوسف)، وكان يُشجعهُ دائمًا على المُضي قُدُمًا.

في يومٍ من أيّام الصيف، حينَ كانت الطرق الترابية تهدأ قليلًا من زحمة الحقول والعابرين،

انطلق (يوسف) على دراجتهِ الصغيرة في رحلةٍ خارج حدود قريته، قاصدًا قرية مُجاورة؛ لزيارة مُعلّم الرياضيات الذي ظلّ يتذكرهُ بإعجابٍ مُنذُ أولى سنوات المرحلة الإعداديّة، لا لبساطة شرحهِ وحسب؛ بل لكونهِ مُختلفًا بهِ شيء لا يُشبه باقي المُدرسين.

وصل (يوسف) مُتعرّقًا، متعبًا، لكنّهُ لم يفقد حماسه، استقبلهُ المعلّم بابتسامتهِ الهادئة، وأدخلهُ إلى مكتبه، لم يَكُن مكتبًا كالمعتاد؛ إذ لا طباشير بهِ ولا دفاتر غياب، غُرفة صغيرة داخل بيتٍ قديم.

على الجدران خرائط العالم، وصور لطائرات، وقصاصات صُحف بلغةٍ لم يفهمها (يوسف)، ورفوف مملوءة بكُتبٍ غريبة العناوين.

جلسَ (يوسف) على طرف الكرسي، ينظر بعينيهِ الواسعتين إلى هذا العالم الجديد، لم ينتظر كثيرًا ليسأل عن تخصص مُعلّمهِ الدقيق في الهندسة.

ابتسم الأستاذ (شاهين) وأجاب بهدوء:

أنا مهندس طيران، عملت في مطاراتٍ مختلفة وسافرت عدّة بلاد، ثُمَّ عُدتُ بسببِ ظروفٍ خاصّة، وبمّا أنّهُ لا يوجد مُدرس رياضيّات، ذهبتُ إلى مدرستكم مُتطوعًا.

كانت تلكَ الإجابة كافية لتزرع بقلبِ (يوسف) دهشة وإعجابًا جديدًا، لكنّهُ لم ينتهِ عندَ هذا الحدّ.

أثناء الحديث، جذبَ انتباه (يوسف) صورة على المكتب، كانت بالأبيض والأسود، تظهر أطفالًا يقفون بينَ أنقاض.

سأل عنها، فأجابهُ المُعلّم بصوتٍ خفيض، وكأنَّ الحديث أنزفَ جُرحًا غائرًا، هذهِ هي البوسنة والهرسك، بلد أوروبي قامت بهِ حربٌ بشعة، فتعرّضَ أهلهُ لمذابح، لكنّ العالم المُتحضر لم يَهتم!

التزمَ (يوسف) الصمت، إذ لم يسمع بهذا الاسم من قبل، لم يعرف أنّ هُناكَ أطفالًا يقتّلون وآخرون يُطردون من بيوتهم، وعائلات تُباد فقط لأنّهم مختلفون في زمنٍ بلا إنترنت،

وبعدها تعرّف على القضية الفلسطينية وأطفال الحجارة.

كانتْ هذهِ أوّل نافذة يطلّ منها على العالم الحقيقي، لا عالم المناهج والكتب، بل عالم البشر، والمآسي، والسياسة، والظلم.

تحوّل اللقاء إلى درسٍ لا يُنسى، لم يكن درس رياضيات، بل درس وعي.

حينَ عاد (يوسف) إلى قريتهِ بدراجته، كانت الطريق نفسها، لكنّها لم تعُد كذلك في عينيه؛ كأنّ كل حجر مرّ بجانبهِ صار يهمس لهُ بشيءٍ جديد!

علِمَ أنّ العالم أوسع ممّا ظن، والدور الذي يُمكن لأيّ إنسانٍ أن يلعبه، حتّى من قريةٍ صغيرة، أعظم ممّا تخيّل.

لم يكن الأستاذ (شاهين) مُجرّد مدرسٍ ليوسف، بل كان مُرشدًا ومُلهمًا ساعده على اكتشاف شغفه بالرياضيات والعلم، وعلى بناء الثقة في نفسه، كان تأثيره جذريًّا، إذ غيّر من طريقة تفكير (يوسف) وجعلهُ أكثر إصرارًا على تحقيق أحلامه.

وكان (يوسف) يعلم أنّ الفضل في جزءٍ كبيرٍ من نجاحه يعود إلى ذلك المُعلّم، الذي آمن بهِ وشجعهُ على أنْ يكونَ الأفضل.

لقد عَلِمَ (يوسف) مدى اهتمام (ليلى) بالدراسة والتفوّق، وكذا حرصها على أنْ تكونَ من الأوائل في مدرستها.

رُّبما كان هذا هو أحد الأسباب، التي جعلتهُ يُقرر أنْ يبذل قصارى جهده في المدرسة الإعداديّة، كما كان يُفكر فيها بينَ الحينِ والآخر، ويتخيّل كيف سيكون ردّ فعلها إذا سمعت عن نجاحاته.

لقد منحتهُ تلكَ الأفكار طاقةً إضافية للاستيقاظ مُبكرًا والمذاكرة لساعات طويلة، حتّى في الأيّام التي يُداهمهُ فيها الإرهاق.

لقد شعرَ بالوحدة في المدرسة الجديدة، لم يكن هُناكَ مَن يُشاركهُ تلكَ النظرات الخاطفة، أو الابتسامات التي اعتاد عليها مع ليلى،

لكنّهُ سرعان ما وجد في الدراسة ملاذًا له، كانت المواد العلمية، خاصّةً الرياضيات، تشغلهُ عن التفكير في الفِراق، فيحلّ المسائل المُعقدة وكأنّهُ يُحاول حلّ لغزٍ كبيرٍ في حياته.

كُلّما تفوّق في اختبار أو حصل على درجة عالية، يشعر بأنّهُ يقترب خطوة من تحقيق شيءٍ ما، رُّبما يكون إثباتًا لذاته، أو رسالةً غير مباشرةٍ لليلى.

ومع الوقت، بدأ يُلاحظ أنّ تفوقهُ لم يمرّ مرور الكرام، فقد جذبَ انتباه مُعلّميه، الذين بدأوا يُوجّهونهُ نحو المشاركة في المسابقات العِلميّة.

كانت تلك المشاركات فرصةً لهُ ليرى نفسهُ في ضوءٍ جديد، وليكتشف قُدرتهُ على المنافسة على مستوى أكبر.

وفي إحدى المسابقات، فاز بالمركز الأوّل في مسابقة الرياضيات على مستوى المحافظة، كان ذلك اليوم واحدًا من أكثر الأيّام سعادةً في حياته.

لكن في خضم فرحته، تمنّى لو أن ترى (ليلى) ما حققهُ من نجاح.

تساءلَ (يوسف) في بعض الأحيان عمّا إذا كانت (ليلى) تعلم عن نجاحاته، وقد سمع من بعض الأصدقاء المشتركين أنّها تتفوق في مدرستها الجديدة، وأنّها ما زالت تُحافظ على مستواها الدراسي المُتميّز.

كانت تلك الأخبار تمنحهُ شعورًا بالارتياح، وكأنّهما ما زالا مُتصلينِ من خلالِ شغفهما المُشترك بالتفوّق.

قد جذبَ (يوسف) الأنظار في باقي سنوات المرحلة الإعداديّة، لم يكن الصخب من طبعه، لكنّهُ كان حاضرَ الذهن، سريع الفَهم، يتسلل إلى قلوب المدرسين بهدوئه واجتهاده.

لم يمض وقتٌ طويل حتّى صار اسمه مألوفًا في الطابور الصباحي وبينَ دفاتر التصحيح، وتناقلته ألسنة المعلّمين بإعجابٍ خفي.

وذات يوم، بعد انتهاء حصّة العلوم، استوقفهُ المعلّم قبلَ أن يخرج من الفصل، وأخرج من حقيبتهِ الصغيرة كتابًا يحمل صورة غريبة على غلافه (نعجة بيضاء تحت الأضواء).

قال لهُ المعلّم بابتسامة: هذا الكتاب عن الاستنساخ، وعن النعجة دوللي، أحببتُ أن أُهديهِ لك.

أشعر أنّك قد فهمت أمورًا كثيرة لم يُدركها باقي الطُلّاب بعد.

وقف (يوسف) مذهولًا لم يُهدِهِ أحد كتابًا من قبل، كانت كتبه دائمًا مُستعملة، وأوراقها مثنيّة من أثر الأيدي الكثيرة، أمَّا هذا فكان لهُ وحده، باسمه، وبسبب فضوله وعقله.

عاد بهِ إلى البيت وكأنّهُ يحمل كنزًا!

فتحهُ تلك الليلة تحت ضوءٍ خافت، وبدأ يقرأ عن الاستنساخ، وكيف استنسخت النعجة دوللي من خليةٍ واحدة؟!

لم يفهم كل شيء، لكنّ الدهشة كانت كافية، شعر وكأنّهُ يتسلل إلى أسرار الكون.

كانت المرّة الأولى التي يلمس فيها (يوسف) العِلم كفكرةٍ حيّة، لا كدرسٍ محفوظ، وكانت المرّة التي لن ينساها ما دام حيًا.

لكنّ الحياة لم تكن كلها دراسة، ففي بعض الليالي، يستلقي على سريره ويتذكر الأيّام القديمة، عندما كانت تُرافقهُ (ليلى) في طريق العودة من المدرسة، أو عندما ترمي له نظرة خاطفة في الفصل.

أخذَ يتساءل عمّا إذا كانت هي أيضًا تتذكره، أو تُفكر فيهِ بينَ الحينِ والآخر.

تلك الأفكار كانت تمنحه حنينًا غريبًا، لكنّها أيضًا كانت تُذكّرهُ بالاستمرار في السير قُدمًا.

في نهاية المرحلة الإعداديّة، تخرّجَ (يوسف) بتفوّقٍ كبير، وحصل على أعلى الدرجات في جميع المواد.

كان ذلك الإنجاز بمثابة تتويج لسنوات من الجهد والعزيمة، لكنّهُ عَلِمَ أنّ ذلكَ التفوّق لم يكن فقط من أجل نفسه، بل كان أيضًا من أجل تلك الفتاة التي كانت جزءًا من طفولته، والتي رُّبما كانت سببًا غير مباشرٍ في تحفيزهِ ليكون الأفضل.

وهكذا كانت (ليلى)، رغم بُعدها حاضرة في حياة (يوسف) بشكلٍ ما.

كانت بمثابة الشُعلة التي أضاءت طريقه نحو التفوّق، وجعلتهُ يُدرك أنّ الحُبّ، حتّى وإن كان صامتًا وبعيدًا، يمكن أن يكون أقوى دافع للإنسان ليتخطّى حدود نفسه ويُحقق ما كان يراهُ مُستحيلًا.

في المرحلة الثانويّة، لم يكن (يوسف) يكتفي بالمذاكرة في المنزل أو الاعتماد فقط على ما يتعلّمهُ في المدرسة، بل كان يعلم أنّ المنافسة شرسة، وعليهِ أن يفعل ما بوسعه ليحافظ على تفوقه ويضمن دخوله كلية الطب.

لذلك قرر أن يلتحق ببعض الدروس الخصوصيّة في القُرى المجاورة، والتي كانت تُعرف بوجود مدرسين متميّزين في المواد العلميّة، خاصّةً في الكيمياء والفيزياء والأحياء، وهي المواد التي تحتاج إلى فَهمٍ عميق ودقيق.

كانت درّاجة (يوسف) قديمة للغاية، لكنّها وسيلته الوحيدة للتنّقل بينَ القُرى.

اعتاد التوجّه يوميًا وبعد انتهاء اليوم الدراسي، إلى القرية المجاورة لحضور الدروس، كان الطريق طويلًا أحيانًا، خاصّةً في الأيّام الحارّة أو عند هطول الأمطار، لكنّ (يوسف) لم يكن يهتم بالتعب أو المشقة، كان يعلم أنّ كل جهد يبذلهُ الآن سيكون لهُ ثمنه في المستقبل.

كانت رحلاته على الدرّاجة مليئة بالتفاصيل الصغيرة، التي جعلت تلك الفترة من حياتهِ مميّزة.

أحيانًا يمرّ بالحقول الخضراء التي تمتدّ على جانبي الطريق، ويستمع إلى أصوات الطيور وهي تغرّد في الهواء الطلق، كانت تلك اللحظات القصيرة تمنحهُ بعض الراحة من ضغوط الدراسة، وتُذكرهُ بجمال الحياة البسيطة في الريف.

وعندما يصل إلى مكان الدرس، يجلس مع مجموعة من الطلاب الذين جاءوا من قُرىً مختلفة، الجوّ العام في الدرس مليء بالتركيز والجديّة؛ إذ كان المدرس يشرح الدروس بتفصيلٍ دقيقٍ، ويُقدّم لهم نصائحًا حول كيفية حلّ الأسئلة الصعبة في الامتحانات، بينما (يوسف) يستمع بكلّ تركيز، ويدوّن الملاحظات التي يعتبرها مهمة.

وبعد انتهاء الدرس يتبادل الأفكار مع زملائه، ويحاولون حلّ بعض الأسئلة المعقدة معًا.

في طريق العودة إلى قريته، يفكر في كل ما تعلّمهُ خلال اليوم.

يتوقف أحيانًا ليُراجع بعض النقاط التي لم يفهمها جيّدًا، أو ليتأمل في النجوم التي تلمع في السماء ليلًا.

كانت تلك اللحظات الهادئة تمنحهُ فرصةً للتفكير في المستقبل، وفي أحلامه التي كان يعمل بجدٍّ لتحقيقها.

لكنّ الدافع الأكبر الذي كان يدفعهُ لمواصلة هذا الجهد الشاق هو ليلى، فقد عَلِمَ أنّها تدرس بجديّة، وتحضر دروسًا في قريتها.

كان يتخيّلها وهي تجلس في فصلها، تُركز في شرح المدرسين، وتدوّن الملاحظات بكل اهتمام، كانت تلك الصورة تمنحهُ الطاقة ليواصل رحلته على الدرّاجة، حتّى في الأيّام التي يشعر فيها بالتعب والإرهاق.

ومع مرور الوقت، أصبحت تلك الرحلات اليوميّة على الدرّاجة جزءًا من روتين يوسف، والذي اعتبرها بمثابة تحدٍّ شخصي؛ فكان يُحاول دومًا أن يصل إلى الدرس في الوقت المُحدّد، وأن يعود إلى المنزل قبل أن يحلّ الظلام.

كانت تلك الفترة من حياتهِ مليئة بالتحديّات، لكنّها أيضًا مليئة بالإنجازات الصغيرة، التي تُقربهُ خطوةً بخطوة من تحقيق حلمه.

كانت تلك الرحلات على الدرّاجة ليستْ مُجرّد وسيلة للوصول إلى الدروس، بل كانت أيضًا رحلةً داخليّة ليوسف؛ حيثُ يكتشف قوة إرادته، وقدرته على تحمُّل الصعاب من أجل تحقيق أحلامه، وهو يعلم أنّ كل جهد يبذلهُ الآن سيكون لهُ ثمنهُ في المستقبل.

في هذهِ المرحلة كان (يوسف) واحدًا من أكثر الطلاب تفوّقًا، خاصّةً في مادّة الكيمياء، لم يكن مُجرّد طالب مُجتهد، بل كان شغوفًا بالمادّة إلى درجة أنَهُ يستطيع حلّ أصعب المُعادلات دون عناء.

على الجانب الآخر، أصدقاءهُ الجيّدين في الكيمياء، لكنّ (يوسف) بالنسبةِ لهم كان متفوقًا بشكلٍ غير عادي.

ذات يوم، بينما هم جالسونَ في ساحة المدرسة بعد انتهاء الحصّة، قال أحدهم وهو ينظر إلى يوسف بابتسامة تحدٍّ: يوسف، ما رأيك

أن تستخرج من حلقة البنزين بعض المواد، دعونا نرى مَن هو الأفضل حقًّا!

رفع عمر حاجبيه متحمّسًا: فكرة رائعة!

لنقم بمسابقة بيننا، بدون عِلم المعلّم، والفائز سيكون ملك الكيمياء في صفنا.

ضحك صديقه قائلًا: ولكن كيف سنقيّم التحدّي؟

_سنضع أسئلة لبعضنا البعض، ومَن يُجيب على أكبر عدد منها سيكون الفائز.

نظر يوسف إليهم وفكر للحظة، ثُمَّ قال بابتسامة هادئة: أنا موافق، ولكن لن يكون الأمر بهذهِ السهولة، لن نضع أسئلة تقليديّة، بل أسئلة تتطلّب الفهم العميق.

وافق الجميع بحماس، وهكذا بدأ التحدّي السرّي بينهم.

بدأ كل واحد منهم بالبحث عن أصعب الأسئلة في الكيمياء، لم يكن الهدف مُجرّد الفوز، بل كان كل واحد يحاول إثبات أنّهُ الأفضل، أخذ يوسف يقرأ في الكتب الجامعيّة ليجد أصعب المسائل، بينما كان عمر ونادر يراجعان أسئلة المسابقات العلمية السابقة.

أمّا حسام فقد اعتمد على المسائل المعقدة التي وجدها في الإنترنت.

كانوا يجتمعون بعد المدرسة في بيت أحدهم، ويتناقشون حول الأسئلة المحتملة، أصبح الأمر أشبه بمعركةٍ فكرية، وكان كل واحد منهم يسعى لأن يكون مستعدًا قدر الإمكان.

اجتمع الأصدقاء في حديقة المدرسة أثناء فترة الاستراحة، واتفقوا على أنّ كل واحد سيطرح خمسة أسئلة على الآخرين.

بدأ حسام بالسؤال الأول، وكان معقدًا لدرجة أنّ عمر ونادر لم يعرفا الإجابة، لكنّ يوسف تمكن من حلّهِ بسهولة.

ثُمَّ جاء دور أصدقاءه، الذين طرحوا سؤالًا حول معادلات الأكسدة والاختزال، وكان السؤال يحتاج إلى تفكيرٍ عميق هذهِ المرة، تمكن يوسف وصديق آخر من الإجابة، بينما تعثر آخر.

عندما جاء دور يوسف، طرح سؤالًا حول الكيمياء، وكان معقدًا لدرجة أنّ الجميع صمت لثوانٍ، حاول صديق التفكير بصوت عالٍ، بينما كان اخر يكتب معادلات معقدة في الهواء، لكن في النهاية، لم يستطع أحد الإجابة سوى يوسف نفسه.

بعد انتهاء الجولة الأخيرة، ظهر واضحًا أنّ يوسف هو الأكثر تفوقًا، فقد أجاب على جميع الأسئلة، بينما تعثر الآخرون في بعضٍ منها.

كان الجميع ينظرون إليه بإعجاب، رغم أنهم كانوا يأملون في هزيمته.

ضحك أحدهم وقال: حسنًا، لا داعي لإنكار الأمر، يوسف هو (ملك الكيمياء) بيننا.

وأضاف آخر: لكنّ هذا التحدّي جعلنا نُدرك أننا بحاجةٍ إلى تحسين مستوانا أكثر، لم يكن مُجرّد منافسة، بل درسًا لنا جميعًا.

أومأ أحدهم برأسهِ قائلًا: يبدو أننا يجب علينا التعلّم منك يا يوسف، أسلوبك في التفكير مختلف.

ابتسم يوسف وقال: الأمر ليس مُجرّد ذكاء، بل هو حُبّ المادة والفهم العميق لها، إذا تعاملتم مع الكيمياء كشيءٍ ممتع بدلًا من كونها مجرّد مادة دراسية، ستجدون أنفسكم تتحسنون بسرعة!

في يومٍ من الأيّام، بينما ذهب يوسف إلى دورة المياه خلال الفسحة المدرسية، وترك حقيبته في الفصل كما اعتاد أن يفعل، كان الفصل هادئًا،

والشمس تنساب من النوافذ العالية، ملقيةً بضوئها الذهبي على المقاعد الخشبية التي تحمل آثار سنواتٍ من الجلوس والاجتهاد.

لكن عندما عاد يوسف إلى الفصل، وجد أنّ دفترهُ الخاصّ الذي هو بمثابة كنزٍ ثمينٍ بالنسبةِ لهُ قد اختفى!

كان هذا الدفتر ليس مجرّد أوراقٍ مكتوبةٍ بخطٍ أنيق، بل كان عالمه الصغير الذي يسجل فيه كل تفاصيل مذاكرته، وكل ملاحظاته الدقيقة، وكل الأفكار التي تلمع في ذهنهِ أثناء الليل.

يعتمد عليهِ اعتمادًا كُليًا، خاصّةً أنّهُ كان على بُعد أشهرٍ قليلةٍ من الامتحانات النهائية.

لم يكن يوسف يذاكر فقط ليصبح الأول على المدرسة، بل كان يحلم بأن يكون الأول على الجمهورية، كان هذا الحلم سرًّا لم يشاركهُ مع أحد، حتّى أقرب أصدقاءه.

كان يعلم أنّ الطريق إلى الهدف شاق وطويل، لكنّهُ مستعدٌ لتحمُّل كل التحديات، فكان هذا الدفتر بالنسبةِ لهُ هو الخريطة التي ستوصلهُ إلى الحلم.

حينما وجد دفترهُ قد سُرِق، شعر بموجةٍ من الذعر تجتاحه، بدأ يبحث عنه في كل مكان، تحت المقاعد، داخل الحقيبة، في أدراج الفصل.

ثُمَّ خرج إلى ساحة المدرسة، حيثُ الأطفال يلعبون، وبدأ يبحث في كل زاوية، حتّى صديقه المُقرّب، الذي كان يعرف مدى أهمية هذا الدفتر له، انضم إليه في البحث، كان يوسف يبحث كالمجنون، وكأنّهُ قد فقد جزءًا من روحه.

وفي لحظةٍ من اليأس، نظر يوسف خلف سور المدرسة، حيث توجد ساحة المدرسة الإعدادية المجاورة.

رأى شيئًا ما ملقى على الأرض، قفز بسرعةٍ عبر السور العالي، وكأنّهُ يتحدّى الجاذبيةَ نفسها، وعندما اقترب، وجد الدفتر مقطعًا إلى نصفين، الأوراق متناثرة هنا وهناك، وكأنّها جرحٌ نازف في قلبه.

وقف يوسف مذهولًا غير قادرٍ على الكلام، يشعر بأنّ الأرض تبتعد من تحت قدميه، وكأنّ العالم كلّه قد توقف!

لم يستطع أن يفهم ما الذي حدث؟

شعر بأنَّ أصدقاء الطفولة، الذين عرفهم منذُ أيّام المدرسة الابتدائية، قد خانوه.

كان الدفتر بالنسبةِ لهُ ليس مجرّد أوراق، بل كان رمزًا لجهوده وأحلامه، أعتقد أنّهُ قد بكى بداخله، لكنّهُ لم يُظهر ذلك لأحد.

لم يكن يوسف يؤذي أحدًا أبدًا، ولم يكن يحمل ضغينةً أو كرهًا لأيّ شخص، فلماذا هذهِ الرسالة القاسية؟

ولماذا الآن، ونحن على أبواب الافتراق، حيث سيذهب كلٌ منّا إلى مجاله ودراسته خلال أشهرٍ قليلة؟

جمع يوسف شتات أفكاره بسرعة، وتجاهل الشعور بالصدمة الذي كاد أن يطغى عليه.

كان يعلم أنّهُ لا يستطيع أن يسمح لهذا الحادث أن يُعيقهُ عن تحقيق حلمه.

عاد إلى الفصل، وجلس على مقعده، وكأنّ شيئًا لم يحدث، بدأ يكتب في دفترٍ جديد، وكأنّهُ يعيد بناء عالمه من الصفر، كان يعلم أن الوقت لا ينتظر أحدًا، وأنّ عليه أن يواصل طريقه بكل قوة.

ظلّ يوسف طوال العام يتحدّى الصعاب، يذهب إلى دروسه على درّاجته القديمة، حتّى في الأيّام المطيرة وأيّام ارتفاع حرارة الطقس ولهيب الشَّمس.

كان يخرج من بيته في الساعة الخامسة فجرًا، عندما يكون العالم لا يزال نائمًا، ويتوجّه إلى الدرس الأول في قريةٍ مجاورة.

كان الطريق طويلًا، لكنّهُ يعلم أنّ كل خطوةٍ يخطوها تُقرّبه من حلمه.

في تلكَ الأيّام، شعر يوسف بأنّهُ يتحدّى المنهج الدراسي، وكذا كل الظروف التي حاولت أن تعيقه، يعلم أنّ الحياة ليست عادلة دومًا،

لكنّهُ يؤمن بأنّ الإصرار والعزيمة هما سلاح الراغب في النجاح.

كما كان يعلم أنّ الدفتر المقطوع لن يكون نهاية قصته، بل بدايةً جديدة لرحلةٍ مليئةٍ بالتحديات والإنجازات.

وها قد دخلت امتحانات الثانويّة العامّة، تلك المرحلة التي طالما انتظرها يوسف بقلقٍ وأمل.

كانت الأيّام الأولى تمرّ بشكلٍ طبيعي، رغم التعب الذي كان يشعر به، كان يعتبر هذا التعب طبيعيًا، نتيجةً للسهر الطويل والساعات التي قضاها في المذاكرة، وهو يُحدّق في كتبه حتّى ساعات الفجر الأولى.

لكن مع بداية اليوم الثاني، بدأ جسده يرسل إشاراتٍ مُقلقة، شعر بثقلٍ في رأسه، وحرارةٍ تتصاعد في جسده، لكنّ عقلهُ قد أنكر ذلك.

يعلم أنّ هناك أحلامًا كبيرة تنتظره، وأنّهُ لا يستطيع أن يسمح لنفسهِ بالاستسلام.

بحلول اليوم الثالث، كانت الحرارة قد ارتفعت بشكلٍ كبير، وجسده بدأ ينهار تحت وطأة الإرهاق والمرض، لكنّهُ أبى الاستسلام، وهو يعلم أنّ هناك تحديّاتٍ يجب أن يتخطاها، وأحلامًا يجب أن يُحققها، حتّى عندما سقط جسده، ظلّ عقله يُقاوم، يرفض أن يعترف بالضعف.

هو يعلم أنّ الاستسلام ليس خيارًا، خاصّةً عندما يكون الحلم على بُعد خطواتٍ قليلة.

وفي أحد الأيّام، وجد يوسف نفسه مستلقيًا على سريرٍ في المستشفى، محاطًا بأسلاكٍ وأنابيب، ومحاليل التغذية الوريديّة تتساقط في جسده ببطء.

يشعر بالضعف، لكنّهُ يعلم أنّهُ لا يستطيع أن يتوقف حتّى في المستشفى، كان يُصر على مواصلة المذاكرة، كانت أختهُ التي لم تُفارقه طوال تلك الفترة، تُمسك كتبه وتقرأ بجواره، محاولةً أن تساعده في مراجعة الدروس.

كانت تلك القراءة الهادئة في ليالي الامتحانات بمثابة شمعةٍ صغيرةٍ تضيء ظلام تلك الأيّام الصعبة.

صباحًا يستقلّ درّاجته متجهًا إلى الامتحان بينما جسده منهكًا، لكنّهُ كان يرفض أن يتوقف، كانت قوته تنهار عدّة مرّات، لكنّهُ يعلم أنّ الحلم الذي يحملهُ في قلبه أكبر من أي ألمٍ يشعر به.

كان يعود إلى البيت بعد الامتحان، ثُمَّ يعود إلى المستشفى، ثُمَّ إلى البيت مرّة أُخرى، في دائرةٍ لا تنتهي من التعب والأمل.

كان يوسف في عامهِ الدراسي الأخير من الثانويّة العامّة، السنة التي يعلّق عليها الجميع مصيرهم، وكأنّها باب الحياة الوحيد.

بعد أن انهار جسده كان يذهب إلى لجان الامتحانات، يركب الدرّاجة خلف أخيه وصديقه اللذان لم يتأخرا عنه يومًا، يضبطا له الطريق بأن يمشي بالدرّاجة في الطُرق السليمة حتّى لا تهتز بهِ ويشعر بألم، يخففا عنه القلق، يلتفت أخاهُ كل بضع دقائق ليطمئن أنّهُ خلفه وغير متألم.

لم يملكا الكثير، لكنّ صنيعهُما ظلّ محفورًا في ذاكرته، لا يمحوهُ الزمن.

في الليل، كان المشهد المتكرر أكثر قسوة، جسد يوسف المنهك يرقد على السرير، إبرة المغذي مغروسة في ذراعه، والأنبوب يمتد من كيس المصل المعلّق إلى عروقه، وكأنّ الحياة تُسحب ببطء ثم تُعاد إليه نقطة نقطة.

التعب أكل منهُ الكثير، لكنّ الامتحانات لم تنتظر، والوقت لا يرحم.

على طرف السرير كل ليلة من ليالي الامتحانات، كانت كعادتها مُنذُ مرضه تجلس أخته، الكتاب بين يديها، تقرأ بصوتٍ خافت، مترددة أحيانًا حينَ تجهل نطق الكلمات، لكنّها لا تتوقف.

كانت تعرف أنّ القراءة بصوتها، حتّى لو لم يفهم كل شيء، تُريحه، تُشعرهُ أنّهُ ما زال يقاوم، ما زال يُذاكر، ما زال يحاول.

الغرفة ضيّقة، والمروحة تدور بصوتٍ متهالك، والهواء بالكاد يتحرّك، لكنّ شيئًا ما في ذلك المشهد كان أوسع من كل القُرى والمُدن، الأخ المتعب، والأخت الصامدة، والحلم الذي لا ينام بينهما.

لم تكن تلك ليلة مذاكرة، بل ليلة من ليالي الصبر الطويل، من ليالي الأمل الذي لا ينهار رغم الجسد المُنهك، والمذاكرة المتأخرة، والظروف التي لا ترحم.

حتّى انتهت الامتحانات، وكان يوسف يعتمد على ثقته في اللّه، وفي المجهود الذي بذلهُ طوال العام.

كان يحفظ جميع الكتب عن ظهرِ قلب، وكأنّهُ آلة تعمل بدقةٍ مُتناهية!

يحتاج فقط لمراجعةٍ خفيفة، سواء من قراءة أخته بجواره، أو من استيقاظه مبكرًا قبل الامتحان بساعة، إذ يفترش الأرض ويضع الكتاب عليها، لأنّهُ لم يعد يقوى على حمله.

يقرأ بصمتٍ، وكأنّهُ يتلو دعاءً صامتًا، حتّى انتهت الامتحانات.

لكنّ التحدّي لم ينتهِ بعد، فهناك امتحان المستوى الرفيع، الذي نصحهُ الطبيب المُقيم في مستشفى الحميّات بحضوره.

وبالفعل قد حضر لهذا الامتحان طوال العام، حيث كان يذهب كل جمعة إلى معلّم اللغة الإنجليزيّة وصديقه المفضّل، الذي كان يساعده في ترجمة المعاني الصعبة في الكتاب.

كان يذهب إليه قبل صلاة الجمعة بساعة من كل أسبوع، ويجلس معهُ في جلساتٍ مليئة بالتفاصيل الدقيقة والأسئلة العميقة.

وفي يوم امتحان المستوى الرفيع، ذهب يوسف وهو يحمل في قلبه أملًا كبيرًا.

وبفضل اللَّه، حصل على واحد ونص درجه في المائة وهي نتيجةٌ كانت بمثابة تتويجٍ لكل الجهود التي بذلها.

لكن بعد انتهاء الامتحانات، كان لا بُدّ من حجزهِ في مستشفى الحُميّات، إذ ظلّ محجوزًا لمدة الشهرين والنصف.

في تلك الأيّام الطوال في المستشفى، كان يوسف يتلو الشهادتين كل ليلة من شدة الالم،

وكأنّهُ يستعد لوداعٍ لا يعرف متى سيأتي.

يعلم أنّ والدهُ الرجل الصامت الذي لا يعبّر عن مشاعره بسهولة، يشعر بالحزن العميق، ينظر إليهِ بعيونٍ مليئة بالقلق، وكأنّهُ يُريد أن يقول شيئًا، لكنّ الكلمات كانت تختنق في حلقه، وهو يعلم أنّهُ يبكي في داخله، ويشعر بالغضب والحزن الشديد لفقدانهِ القدرة على التعبير عن مشاعره.

وفي يوم النتيجة، نادى والده عليه من خارج سور المستشفى، وأخبره بالنتيجة.

سمع يوسف نتيجة الثانويّة العامّة من نافذة المستشفى.

كان وجه والده في تلك اللحظة يعكس مزيجًا من الفرح والألم، بينما يوسف يشعر بالغضب والحزن الشديد؛ لفقدانهِ القدرة على مشاركة تلك اللحظة معهُ بشكلٍ طبيعي.

ظلّ يوسف يتلو الشهادتين يوميًا طوال الشهرين والنصف التي قضاها في المستشفى.

كان الألم مستمرًا، لكنّهُ يعلم أنّ الجميع حوله يتألمون أيضًا.

والدته، التي لم تتغيّب عنه يومًا واحدًا، كانت تفرّغ حياتها بالكامل من أجله.

ظلّت بجواره طوال الوقت، تحاول التخفيف عنهُ، وتُقدّم لهُ الدعم المعنوي الذي يحتاجه.

دعمهُ جميع مَن حوله حتّى خرج من المستشفى.

بعد أيّام قليلة من خروجهِ وحينَ بدأ جسده يستعيد شيئًا من توازنه، جلس يوسف في فناء البيت الصغير تحت ظلّ شجرة الجوافة، يحاول استيعاب كل ما مرّ بهِ، الإرهاق، الامتحانات، المحاليل، والسكون الثقيل الذي خيّم على قلبهِ في الليالي الطوال.

في ذلك العصر الهادئ، طرقت ليلى الباب.

لم تكن زيارة متوقعة، لكنّها لم تكن غريبة، هي زميلته مُنذُ الطفولة، وجارتهم القديمة، ورفيقة الفصول الدراسية والمنافسة الصامتة.

وقفت عند الباب بابتسامة خجولة، تحمل في يدها بعض الحلوى، وفي عينيها قلق ناعم.

رحّب بها بخجل، وترك لها الكرسي الخشبي الوحيد تحت الظلّ، وجلس على حافّة العتبة.

تحدثا أولًا عن الامتحانات، عن الأسئلة الصعبة، عن اللجان، عن المُعلّمين الذين يملكون وجوهًا لا تتغيّر.

ثُمَّ بدأ الحديث يتفرّع، ينساب مثل نهر صغير وجد طريقه بعد مطرٍ طويل.

سألته عن صحته، عن تلك الليالي، وعن الألم.

لم يكن كثير الكلام، لكنّهُ حكى بهدوءٍ دون دراما، وكأنّهُ يحكي عن شخصٍ آخر عاش ذلك، لا هو!

كانت تستمع لهُ دونَ مُقاطعة، فقط تنظر إليه بنظرة دافئة لا تقول شيئًا، لكنّها تقول كل شيء.

في لحظة من الصمت، نظر إلى شجيرة الورد الصغيرة المزروعة بجوار السور.

مدّ يدهُ فقطف وردة حمراء نبتت حديثًا، كأنّها كانت تنتظر هذا اليوم، ناولها إيّاها دون كلماتٍ كثيرة، فقط قال: تفضّلي.

لاحظ يوسف ترددها في أخذ الوردة

فقال: فتاة لا تُحبّ الورد، غريب؟

رُّبما كانت ليلى ترى في الورد ما لا يراهُ الناس، لا يُغريها جماله ولا تخدعها رائحته.

تقول: إنّهُ مؤقت، يذبل بسرعة، وكأنّهُ يعتذر عن جماله مُنذُ اللحظةِ الأولى.

حينَ أهدى يوسف إليها الورد، ابتسمت بأدب، وشكرته بهدوء، ووضعتهُ جانبًا، لا تكرهه، لكنّها لا تراهُ صادقًا، وقالت: الورد جميل، لكنّهُ لا يعيش، أنا أُحبُّ ما يبقى.

تُحبّ ليلى الأفعال التي لا تحتاج تغليفًا، ولا تنكسر بعد يومين، قالت إنّ الورد يُشبه المجاملات: ناعم، لكنّهُ لا يدفئ القلب طويلًا.

ورغم ذلك، ليلى رقيقة في مشاعرها، في صوتها، في نظرتها للأشياء، لكنّها فقط لا تُحبّ الورد.

نظرت ليلى إلي يوسف طويلًا، وكأنّها ترى فيه شيئًا جديدًا، شخصًا عاد من مكانٍ بعيدٍ في تلك اللحظة، لم تكن ليلى مجرّد زميلة، لكنها كانت شاهدًا على ولادة جديدة.

شعرَ يوسف وهو يُراقب ظلّها أثناء مغادرتها ببطءٍ، أنّ قلبه ينبض بشكلٍ مختلف.

كأنّ شيئًا انكسر في الداخل، ثُمَّ بُنيَ من جديد، بهدوء، بثبات، وبوعدٍ غير منطوق أنّ القادم سيكون أجمل.

في السنة الأولى من دراسته في كلية الطب بقنا، افتقدَ يوسف كل شيء، قريته، أصدقاءه، لكنّهُ أكثر ما كان يفتقدهُ هو ليلى، كانت في القاهرة، إذ التحقت بإحدى كُليّاتها، بعيدة عنه بمئات الكيلومترات، لكنّها أقرب ما تكون إلى قلبه.

طوال تلك الأيّام، يحمل يوسف حبًّا صامتًا مُنذُ الطفولة.

حُبّ لم يُعلنهُ يومًا، لكنّه كان يسكن فيه كنبضٍ لا يتوقف، كسرٍّ يضجّ في صدره كلّما سمع اسمها أو لمح صورة تجمعهما أيّام المدرسة.

وذات مساء، بعد صراعٍ طويلٍ بين قلبه وخوفه،

حصل يوسف على رقم هاتف منزلها، لم يكن يعرف بالتحديد كيف وصلَ إليه، كأنّ الكون كلّه تآمر لصالحه.

تردّد كثيرًا قبل أن يرفع السماعة، كانت يداه ترتجفان وصدره يعلو ويهبط كما لو أنّهُ يركض دونَ توقف.

دقّ الرقم، ثوانٍ مرّت وكأنّها دهور، ثُمَّ جاءه صوتها، صافيًا كما كان يتذكره، كأنّ شيئًا لم يتغيّر.

قال لها: ليلى.

قالت: نعم.

قال: أنا يوسف.

قالت: أهلًا يوسف.

ثُمَّ قال لها بصوتٍ خافت يشوبهُ التردد: أُريد أن أقول لكِ شيئًا.

قالت بهدوء: تفضل.

تنفس بعمق، كأنّ الكلمات تستدعي شجاعة لم يعرفها من قبل، ثُمَّ قال: أنا أُحبّكِ، أُحبُّكِ مُنذُ الطفولة.

ساد صمت طويل على الطرف الآخر من الخط، لم ترد.

شعر أنّ الصمت أثقل من أن يُحتمل، لكنّه أدرك أنّها فوجئت، وأنّ وقع كلماته عليها لم يكن هيِّنًا.

فقال سريعًا، مُحاولًا أن يُخفف عنها حرج اللحظة: لا أُريدُ ردًا اليوم، فقط أردتُ أن تعرفي.

سأعاود الاتصال بكِ في وقتٍ لاحق ثُمَّ أنهى المكالمة، تاركًا قلبه مُعلّقًا بين الرجاء والخوف.

وفي الأيّام التالية، عاش يوسف في حالة من الترقب والتوجس، أكانَ مجنونًا؟ هل أخطأ؟ لماذا فعل ذلك؟

لكنّه لم يندم، كان لا بُدّ من قولها يومًا.

مرّت الأيّام ببطء، بينما يوسف يحصي الساعات والدقائق، يتقلّب ليلًا في فراشه، يتخيّل كل الاحتمالات: هل ستتصل؟ هل سترُدّ؟ هل ستقول نعم؟ أم تتهرّب؟ أم ترفض؟

لكنّه لم يستطع الانتظار أكثر.

في مساء هادئ، أمسك بسماعة الهاتف الأرضي من جديد، وقلبه ينبض بنفس القوة، وكأنّها المرة الأولى.

طلب الرقم، رنّ الجرس، ثُمَّ جاء صوتها صافيًا، فيه شيء من التوتر، وشيء من الترقب.

قال بهدوء، وكأنّه يتمسّك بخيط أمل: ليلى، ما ردّكِ؟

ساد صمت لثوانٍ، ثُمَّ جاء صوتها، خافتًا لكنّه واضح: نعم.

توقف قلبه لحظة، لم يُصدّق، سألها: نعم ماذا؟

أجابت بخجلٍ وصدقٍ لا يُمكن أن يُخفى، ضحكت ضحكة خفيفة، ثُمَّ أكدت له: نعم، أُحبّك.

أنهى يوسف المكالمة بعدما سمع منها تلك الكلمة مرّات، أراد أن يتأكد أنها ليست حلمًا، أن يسمعها بصوتها، وبكل الطُرق، وهي لم تبخل، قالتها لهُ كما لو كانت تحفظها عن ظهر قلب، وكأنها انتظرت سنوات لتخرج من قلبها.

في نهاية الحديث، اتفقا على أن يكون هذا الحُبّ وعدًا، عهدًا لا ينكسر، أن يصونه كلٌّ منهما في قلبهِ حتّى تنتهي الدراسة، ويتقدّم إليها رسميًّا كما يليق بها.

بعد أن أغلق الهاتف، خرج يوسف إلى الشارع لا يشعر بالأرض تحت قدميه، كان كمَن يسير فوق الغيم، الهواء بدا أرق، السماء أوسع، وكل شيءٍ من حوله صار أجمل، ابتسامته لم تفارقه، وعيناه تلمعان كأنهما عثرتا أخيرًا على النور.

كان قلبه يردد طوال الطريق: هي تُحبّني، تُحبّني فعلًا.

ظلّ يرددها كأنّها نشيد انتصار، وكأنّ الحياة كلها قد بدأت للتو.

في تلك الليلة، عرف يوسف طعم النشوة الأولى للحُبّ الحقيقي، لم يعد طفلًا بعد اليوم.

في أيّامه بالكُليّة حاول يوسف مُجاراة الكليّة والضغوطات، فيوسف صاحب الحماس كان مُقيّدًا بالعلاجات الكثيرة، التي لا بُدّ من الاستمرار عليها ستة أشهر بعد الخروج من المستشفى.

يوسف المتقد بالحماس والنشاط لم يعد متاحًا الآن!

أصبحَ يوسف شخصًا آخرًا في فترة الكليّة،

لكنّه حارب وحاول حتّى انتهت فترة دراسته في السنوات الأولى على خير، وانتهت الفترة العصيبة من كل الاتجاهات ماديًّا وذهنيًّا.

أولًا: محاولات اقتصاده في مصاريفه ومصاريف الكتب، وتغاضيه عن جميع أنواع الترفيه في مدينة الاغتراب.

ثانيًا: تفكيره في التزامه تجاه حلم حياته ليلى،

يتذكر يوسف دعم ليلى لهُ حينَ يستعدّ لامتحانات أو حالَ تعرّضه لضغوطات، كانت تقول لهُ اقرأ سورة (ياسين) قبل الامتحان.

يتذكر صوتها الدافئ الذي يؤثر فيه كالمهدئات.

كانت ليلى في عينيه كلوحةٍ رسمتها أنامل القدر بكل إتقان.

كلّما نظر إليها شعر وكأنّ الوقت يتوقف، وكأن العالم من حوله يذوب، ليترك مساحةً لهذا الجمال الذي لا يُوصف.

كانت ليلى تتمتع بوجهٍ بيضاوي ناعم، كأنّهُ نُحتَ من رخامٍ نقي، تعلوهُ بشرة صافية تشّع بنضارةٍ طبيعية، وكأنّها تلمع تحت أشّعة الشّمس الأولى في الصباح.

عيناها واسعتان، لونهما بنيّ داكن، يشبهان بحيرتين هادئتين في أعماقهما أسرارًا لا تُحصى.

كلّما نظرت إليه، يشعر وكأنّها تقرأ أفكاره دونَ أن ينطق بكلمة.

طويلة الأهداب وكثيفتها، ترفرف كأجنحة فراشةٍ ناعمة، تضيف إلى نظراتها سحرًا لا يُقاوم.

كانت ليلى تمشي بخطواتٍ خفيفة، كأنها تلامس الأرض برفقٍ شديد.

كل حركة من حركاتها تنضح بأنوثةٍ طبيعية، من طريقة تحريكها ليديها إلى طريقة جلوسها بكل رشاقة، حتّى عندما كانت تبتسم، ابتسامتها تملأ المكان نورًا، وكأنّها شّمسٌ تشرق في يومٍ غائم.

كان يُحبّ الطريقة التي تتحدّث بها، صوتها الهادئ الذي يُشبه خرير الماء، ينساب إلى أُذنيهِ فيملأ قلبه بالطمأنينة.

كانت كلماتها دائمًا محمّلةً بالحكمة والعطف، وكأنّها تعرف بالضبط ما يحتاج إلى سماعهِ في اللحظة المناسبة.

لم يقتصر جمال ليلى على مظهرها الخارجي فقط، بل كان جمالها الداخلي هو ما أوقعهُ في حبّها أكثر، كانت طيّبة القلب، متعاطفة، وقويّة في ذات الوقت.

تحمل في داخلها نورًا يضيء حياة كل مَن حولها، تعرف كيف تجعله يشعر بأنّهُ الأهم في العالم، حتّى في أصعب لحظاته.

كانت ليلى كاملة بعينه، لم تكن مجرّد فتاة جميلة، بل كانت عالمًا كاملًا من الجمال والحبّ والحكمة.

هي القصة التي لا تنتهي، واللوحة التي لا يكتمل جمالها أبدًا.

بكل بساطة هي الحبّ الذي جعل حياته تستحق أن تُعاش.

كانتْ ليلى في عينيهِ كأنّها قصيدة كتبها الشوق بلغة القلب، كل بيتٍ فيها يروي قصة جمالٍ لا يُضاهى.

كان يقول في نفسه، مستلهمًا كلمات (نزار قبّاني):

ليلى كأنّها القمرُ في الظلماءِ يَسري

تُضيءُ دربي إذا ما الليلُ قد عَسعَسا

عينانِ كالبَحرِ تُخفي في أعماقهما

أسرارَ قلبٍ بحبِّ العاشقينَ انْغَمَسا.

يرى في ابتسامتها نورًا يضيء قلبه، مستحضرًا كلمات الشاعر السوري (عمر أبو ريشة) فينشد:

وإذا ابتسمتْ كأنَّ الصبحَ قد طلَعا

أشرقَتْ دُنيايَ من نورِ الابتسامِ معا

فكأنّما كلُّ نجمٍ في السماءِ هَوى

ليُزينَ ثغرًا بأسرارِ الجمالِ اتَّسَعا.

رآها وكأنّها قصيدة جمعت بين إحساس (نزار قباني) وروعة (أحمد شوقي)، وعُمق (عمر أبو ريشة) وحكمة (جُبران خليل جُبران)، وكذا شاعريّة (محمود درويش).

هي الجمال الذي لا يُوصف، والحبّ الذي لا يُنسى.

مع مرور الأيّام، أصبحت المكالمات الهاتفيّة بين يوسف وليلى جزءًا أساسيًا من حياتهما، كانا يتحدّثان كل ليلة، يرويان لبعضهما تفاصيل

يومهما، يشتكيان من ضغوط الدراسة، ويضحكان على المواقف الطريفة التي تحدث معهما في الجامعة.

اعتاد يوسف الدراسة حتّى ساعات متأخرة من الليل، وعندما يتعب، يرسل لها رسالة بسيطة: أحتاج لصوتكِ الآن، هل يمكننا التحدُّث؟

فتُجيبه على الفور، حتّى لو كانت منشغلة.

شعر يوسف بالتوتر والضغط فترة الامتحانات، خاصّةً وأنّ المواد التي يدرسها في كلية الطب صعبة وتتطلب تركيزًا كبيرًا.

في إحدى الليالي، بينما كان يجلس أمام كتبه محاولًا التركيز، وصلته رسالة من ليلى، كانت رسالة قصيرة لكنّها مليئة بالدفء والطمأنينة.

كتبت لهُ: يوسف، أنا أعلم أنّ الامتحانات مرهقة، لكنّكَ قادر على اجتيازها، تذكّر دائمًا أنّك بذلت ما بوسعك، وأنّ اللّهَ لن يُضيع تعبك، قبل أن تبدأ المذاكرة، لا تنسَ سورة (ياسين)، ستشعر بالراحة والهدوء، أنا أؤمن بك، وأنت أقوى ممّا تتخيّل.

نزلت كلماتها كالبلسم على قلبهِ المُتعَب، قرأ رسالتها عدّة مرّات، وابتسم وهو يتخيّل صوتها وهو يهمس له بهذهِ الكلمات المشجعة.

قرر أن يتبع نصيحتها، فأغلق كتبه للحظة، وفتح المصحف وقرأ سورة (ياسين)، شعر بعدها براحةٍ غريبة، وكأنّ ثقلًا قد أُزيح عن صدره.

بعد ذلك، بدأ يذاكر بتركيز أكبر، بينما كلمات ليلى تتردد في ذهنه: (أنت أقوى ممّا تتخيّل)، حتّى عندما شعر بالإرهاق، كان يتذكر رسالتها ويجد في نفسه الطاقة ليواصل.

في اليوم التالي، أرسل لها يوسف رسالة شكر، قال فيها: شكرًا لكِ ليلى ، كلماتكِ كانت بمثابة شحنات طاقة لي، قرأت سورة (ياسين) كما نصحتِ، وشعرت براحةٍ كبيرة.

ردّت ليلى بابتسامة في كلماتها: العفو يا يوسف، أنا دائمًا هنا لأدعمك، تذكر أنّك لست وحدك، وأنا أؤمن بأنّك ستتفوق كما تفعل دومًا.

هي مصدر طمأنينة ليوسف حتّى من بعيد!

كلماتها البسيطة كانت كفيلة بأن تمنحهُ القوة ليواصل طريقه، خاصّةً في الأوقات الصعبة.

أمَّا عن سورة (ياسين) التي نصحتهُ بقراءتها، أصبحت جزءًا من روتينه قبل كل امتحان، كتذكير بأنّ هناك من يؤمن بهِ ويُشجعهُ من بعيد.

في السنه الثانية من الكليّة رجع يوسف إجازة من قنا إلى القرية، وتواصل مع ليلى واتفقا على اللقاء في المدينه في وجود أختها.

لم يكن لقاءً مُرتبًا لكنّها الصدفة؛ إذ كانت تُنهي معاملات مع أختها بالمدينة.

عندما وصل يوسف لم يجدها، وعند وصفها للمكان وصل طريقًا عامًّا واذا بالشّمس تحجب ويظهر نورها أمامهُ فجأة!

لا ينسَ هذا المنظر، كأنّهُ اقتحم الغيبيّات وتواصل مع الحور العين، وقفت أمامهُ وكانت المرّة الأولى التي يراها بعد أن أخبرها بحبّه.

لم يتكلّم لثوانٍ لكنّهُ اكتفى بالابتسام فقط،

حتّى صافحتهُ وعرّفتهُ بأختها، قضيا الوقت وقوفًا حتّى انتهى اللقاء وتوجّه كلٌّ لوجهته.

المسافة بين القاهرة وقنا طويلة، لذا من النادرِ أن يجمعهما اللقاء.

ورغم قلة اللقاءات، كان كل لقاء يحمل من المشاعر ما يكفي لتعويض شهور الانتظار.

في أحد الأيّام، وبينما كانا يتحدّثانِ عبر الهاتف، قال يوسف بصوتٍ حالم: أحيانًا أشعر أنّني أعيش فقط من أجل تلكَ اللحظات التي أكون فيها معكِ.

ابتسمت ليلى، ورغم أنّ قلبها يغمرهُ الشوق، إلّا أنّها قالت: وأنا أيضًا، لكنّ الحبّ ليس مجرّد لقاءات، الحبّ هو أن نكونَ معًا حتّى لو كنّا في مدينتين مختلفتين.

لم يكن الحبّ عن بُعد سهلًا، فكثيرًا ما كان يوسف يشعر بالغيرة، حينَ يرى زملاءه في الجامعة يقضون أوقاتهم مع مَن يحبون،

بينما هو ينتظر بصبرٍ حتّى يحين موعد لقاء ليلى، وكثيرًا ما كانت ليلى تخشى أن يبتعد عنها يوسف بسبب اِنشغالهِ بالدراسة والحياة الجامعيّة.

في إحدى الليالي، بعد يوم مرهق من المحاضرات، اتصلت بهِ ليلى وقالت بصوتٍ يملؤهُ القلق: يوسف، هل تعتقد أنّ البُعد سيجعلنا نفترق يومًا ما؟

أجابها بثقة: لا، لأنّني لم أُحبّكِ بسبب قربك، بل لأنّكِ أنتِ، وفكرة أن أخسركِ بسبب المسافة وحدها غير واردة في حياتي.

شعرت ليلى براحةٍ لم تشعر بها مُنذُ فترة، وأدركت أنّ الحبّ الحقيقي لا يتأثر بالبعد، بل يقوى بهِ.

مرّت الأعوام، وكبر الحبّ بينهما كما يكبر النهر وهو يشق طريقهُ إلى البحر.

أصبح يوسف في السنة الأخيرة من دراسته، وكذا ليلى، لم يعودا مراهقين كما كانا في البداية، بل نضجا معًا، وتعلّم كلاهما معنى الصبر والانتظار.

في أحد الأيّام، بينما كانت ليلى تستعدّ لاختبارها النهائي، تلّقت رسالة من يوسف: لقد حصلت على فرصة عمل رائعة في إحدى المستشفيات الكبرى بالقاهرة، هذا يعني أنّني سأتمكن من تأمين مستقبلي تقريبًا.

لم تستطع كتم فرحتها، واتصلت بهِ فورًا قائلة:

هذا رائع يا يوسف !

أنا فخورة بك جدًّا.

ضحك يوسف وقال بمكر:

وماذا عنكِ؟ متى ستنهين دراستكِ وتأتينَ إلى القاهرة لنُكمل حياتنا معًا؟

ضحكت ليلى وقالت: قريبًا جدًّا، ولن يكون هناك بعدٌ بعد الآن.

وفي اللقاء الثاني بين يوسف وليلى، أثناء وجود يوسف في القرية بعد العام الأخير من الدراسة، اتفقا على أن يوصلها إلى القاهرة في رحلة القطار المعتادة بالنسبةِ لها إلي الجامعة.

ورغم زحام القطار الشديد وجدا مكانًا فارغًا ليجلسا متقابلين.

جلس أمامها ما يُقارب الساعة والنصف يتأمل هذا المخلوق، الذي طالما تمنّى أن ينظر إليه عن قُرب، وفي صدرهِ الكثير الذي يُريد أن يحكيهُ دفعةً واحدة؛ فعندهُ تراكمات سنوات من الذكريات، التي لا تعرف ليلى عنها شيئًا ولم توجد الفرصة ليحكي لها.

جلس أمامها يتأمل وينظر في صمتٍ ويسمع الصوت العذب، الذي يحكي عن قصاصات أنيس منصور.

أه.. لقد بدأت غيرته وكرهه لهذا العبقري (أنيس منصور)، لمجرّد وجود قصاصات من الجريدة بينَ يديها.

لم يكن يعرف يوسف حينها ما معنى الحبّ العُذري، والذي بالمناسبة يكثر ذكره كنوعٍ من الغزل في الأشعار، والذي يبتعد عن وصف محاسن جسديّة، بل فقط يقتصر على وصف المشاعر تجاه حبيبته، ووصف آلام البعد

ولكنّهُ كان كذلك وأكثر.

بعد أن جلسا متقابلين في القطار، ورأى قصاصات (أنيس منصور) في يدها، والتي تتحدّث عن النساء تارة وعن الحبّ تارةً أُخرى،

طلب منها أن تقرأ عليه القصاصات.

ترددت ليلى فى البداية، لكنّها بدأت تقرأ، بدأت في قراءة عبارات الحبّ وفلسفة (أنيس منصور) في الحبّ والحياة، وذلك من خلال قصاصات الجرائد المختلفة؛ إذ كانت هوايتها هي جمع المقالات والإحتفاظ بها.

قال لها يوسف مُتعمّدًا اِحراجها: هل تبدأينَ برواية (القلب أبدًا يدق)؟

ابتسمت ليلى بخجلٍ وتجاهلته، ثُمَّ بدأت تقرأ.

الحُبّ الحقيقي هو أن ترى نفسك في عينين أخريين، وأن تعيش من أجل ابتسامة لا تظهر إلَّا من أجلك، لا تخف من الحبّ، فالحبّ لا يجرح. الذي يجرح هو التوقعات التي نضعها على الحبّ، الحبّ ليس كلمة تُقال، بل هو فعل يُعاش. الحبّ هو أن تكون هُناكَ عندما يحتاجك الشخص، حتّى لو لم يطلب منك ذلك.

الحبّ ليسَ أن تجد الشخص المثالي، بل أن ترى الشخص غير المثالي بشكلٍ مثالي.

لا تُحاول أن تغيّر مَن تُحبّ، فالحبّ الحقيقي هو أن تُحبّ الشخص كما هو، بكلّ عيوبه وكمالاته.

مع كل جمله تقولها ليلى كان يوسف يرد عليها بجملة من كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، والذي كان يحفظهُ عن ظهرِ قلب.

كتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) لابن حزم الأندلسي، هو أحد أشهر الكتب العربية، التي تتناول موضوع الحبّ والعشق من منظور فلسفي وأدبي واجتماعي.

والذي يُعدُّ تحفةً أدبيّة تجمع بين الشعر والنثر، ويُقدّم تحليلًا عميقًا لمشاعر الحبّ وأنواعه وأسبابه وآثاره.

- الحبّ أوّلهُ هزل، وآخره جدّ.
- الحبّ عذراء تختفي في قلب العاشق، فلا يراها إلّا هو.
- الصبر على الحبّ أشدُّ من الصبر على الفِراق.
- مَن صبر على حُبّهِ نالَ مراده، ومَن استعجل، فقد أضاع سعادته.
- الحبّ قدرٌ لا يُردُّ، وقضاءٌ لا يُبدَّل.
- الحبّ هو الحياة، ومَن لا حبَّ في قلبه، فهو ميّتٌ بينَ الأحياء.

- الحبّ يُحيي القلب، ويجعل الحياة تستحق أن تُعاش.

وهكذا انتهى اللقاء بينهما بمجرّد وصول القطار إلى وجهته .

في أحد الأيّام، بينما كان يوسف و ليلى يتحدثان في الهاتف، قرر يوسف أن يفتح موضوعًا جديدًا للنقاش، بعيدًا عن الدراسة والامتحانات.

كان يعلم أنّ ليلى فتاة ملتزمة دينيًّا، لكنّهُ فضوليًا يُريد أن يعرف أكثر عن اهتماماتها الشخصيّة، عن الأشياء التي تحبّها والتي تمنحها بعض الراحة في حياتها اليوميّة.

بدأ يوسف الحديث بتلقائية، وكأنّهُ يحاول أن يكسر الحاجز الرسمي بينهما: ليلى، هل تُحبّينَ سماع الأغاني؟

وهل لديكِ ممثلة مفضلة؟

كانت الأسئلة بسيطة، لكنّها حملت في طيّاتها رغبةً عميقة في معرفة المزيد عنها.

ليلى، الهادئة دومًا والواثقة من نفسها، ضحكت ببراءةٍ قبل أن تُجيب.

وانتظرت لحظات وكأنّها تزن كلماتها قبل أن تتفوّه بها، ثُمَّ قالت: رغم التزامي الديني، أُحبّ أحيانًا أن أستمع إلى بعض الأغاني الهادئة، خاصّةً تلك التي تبعث على الطمأنينة، مثل قصائد عبد الحليم حافظ.

شيءٌ ما بصوتهِ يجعلني أشعر بالراحة، وكأنّهُ يُلامس شيئًا عميقًا في قلبي.

كانت إجابة ليلى مُفاجئة ليوسف، الذي لم يكن يتوقع أن تذكر اسم عبد الحليم حافظ، الفنان الذي كان يعتبر رمزًا للفن الأصيل.

لكنّهُ سرعان ما فهم أنّ ليلى، كانت تبحث عن الجمال في كل شيء، سواء في الفن أو في الحياة.

كانت تُحبّ القصائد التي تحمل معاني عميقة، والتي تلامس الروح قبل العقل.

يوسف، الذي كان يستمع باهتمام، ابتسم وقال: عبد الحليم حافظ فعلاً صوته ساحر، حتّى أنا أُحبّ بعض أغانيه، خاصّةً القصائد منها

هل لديكِ أغنية مفضلة له؟

ليلى فكرت للحظة، ثُمَّ أجابت: نعم، أُحبّ أغنية (قارئة الفنجان).

هناك شيءٌ ما في كلماتها يجعلني أشعر بأنّ الحياة رغم كل صعوباتها، مليئةٌ بالأسرار التي تنتظر أن نكتشفها.

ثُمَّ أضافت بابتسامة خفيفة: وأيضًا، أُحبّ (زُبيدة ثروت)؛ لتميُّزها بملامح مليئة بالطيبة والشفافية، وبساطة تعابيرها تعكس قلبًا صافيًا، كأنّها تحمل براءة الزمن الجميل بكل ما فيهِ من صدق.

كان الحديث بينهما يتدفق بسلاسة، وكأنّهما يعيشانِ في عالمٍ مختلف.

بعيدًا عن ضغوط العمل والحياة اليومية، شعر يوسف بأنّهُ يقترب أكثر من ليلى، ليس فقط كحبيبة، بل كشخصيةٍ تحمل في داخلها الكثير من العمق والجمال.

وكان يعلم أنّ هذهِ الجوانب من شخصيتها هي التي جعلتهُ ينجذب إليها أكثر، لأنّها تجمع بين القوة والرقة، بين الالتزام والانفتاح على العالم.

وهكذا، كانت تلك المحادثات البسيطة بدايةً لتفاهمٍ أعمق بين يوسف وليلى؛ حيثُ شرعا في اكتشاف المزيد عن بعضهما البعض، وتقاسما بعض الاهتمامات والأحلام المخبأة بقلبيهما.

في ليلةٍ هادئة، بينما تجلس ليلى في غرفتها الصغيرة بالمدينة الجامعية، شعرت بموجة من المشاعر الجيّاشة تجتاحها، كانت تفكر في يوسف، في كل اللحظات التي تشاركاها عبر الرسائل، وفي البعد الذي يفصل بينهما،

قررت أن تكتب لهُ رسالة تعبر فيها عن كل ما يجول في خاطرها، عن مشاعرها التي كانت تكبر يومًا بعد يوم، وعن كمّ الأشياء التي تتمنّى أن تقولها له وجهًا لوجه.

كتبت ليلى رسالة طويلة، مليئة بالمشاعر الصادقة والكلمات التي كانت تخفيها في قلبها مُنذُ وقتٍ طويل.

تحدّثت عن كيف أنّهُ أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياتها، وكيف أنّ رسائلهُ تُلّمع أيّامها حتّى في أصعب الأوقات.

كتبت عن أحلامها التي أصبحت تتخيّلهُ فيها، وعن اللحظات التي كانت تتمنّى لو كان بجانبها.

لكن بعد أن انتهت من كتابة الرسالة، وقفت لحظة تتأمل الشاشة.

شعرت بخوفٍ مُفاجئ، خوف من أن تكون قد كشفت أكثر ممّا يجب، أو أن تكون قد وضعت نفسها في موقفٍ قد يُغيّر طبيعة علاقتهما.

قررت أن تمسح الرسالة قبل أن يراها يوسف، وشعرت بقلبها يخفق بسرعة، ثُمَّ ضغطت على زر الحذف.

بعد دقائق أرسلت رسالة قصيرة ليوسف تقول فيها: يوسف، كتبت لك رسالة طويلة، لكنّني مسحتها قبل أن أُرسلها.

عندما قرأ يوسف الرسالة، شعر بالفضول والحيرة، سألها: لِمُ قُمتِ بحذفها؟ ماذا كنتِ تكتبين؟

ابتسمت ليلى بخجل، وكتبت له: لا أستطيع أن أُخبرك، رُّبما يومًا ما سأقول لك، لكن ليس الآن.

ظلّ يوسف يُفكر فيما يمكن أن تكون قد كتبته، لكنّهُ قرر أن يحترم خصوصيتها ولم يضغط عليها.

كان يعلم أنّ ليلى شخصية صادقة وحسّاسة، وأنّها ستُخبرهُ عندما تشعر بأنّ الوقت مناسب.

لكنّ تلكَ الرسالة المحذوفة أصبحت لغزًا بينهما،

شيئًا يذكرهما دائمًا بأنّ هناك كلمات لم تُقل بعد، ومشاعر لا تزال تنتظر اللحظة المناسبة لتظهر.

رُّبما كانت تلك الرسالة بداية لفصل جديد في قصتهما، أو رُّبما كانت مجرّد ذكرى جميلة تُضاف إلى ذكرياتهما، التي تزداد يومًا بعد يوم.

وهكذا، بقيت تلك الرسالة سرًّا بينهما، كرمزٍ للحُبّ الذي ينمو في صمت، وينتظر اللحظة المناسبة ليُزهر.

بعد أن أنهى يوسف دراسته عاد إلى القاهرة ليبدأ حياته المهنية، كانت السنوات الماضية صعبة، لكنّ فكرة أنّهُ اقترب من تحقيق حلمه كانت تمنحهُ الأمل، لم يكن هناك شيء يشغل تفكيره أكثر من تلك الفتاة، التي أحبّها مُذ أيّام الطفولة، والتي يحلم بأن تكون شريكة حياته.

كان على يقين أنّ الوقت قد حان ليخطي الخطوة الكبرى، فذهب إلى عائلته وأخبرهم برغبته في التقدّم رسميًّا لخطبة ليلى، رحب الجميع بالفكرة، فقد كانت معروفة لديهم، وكانوا يدركون مدى تعلُّق يوسف بها.

بعد أيّامٍ قليلة، ارتدى يوسف أفضل ملابسه، وأخذ معهُ والديه وبعض أفراد عائلته، واتجهوا إلى حيثُ تسكن ليلى، كانت مشاعره ممزوجة بالحماس والتوتر، لكنّهُ كان متأكدًا أنّ الحبّ الذي جمعهُ بليلى كل هذهِ السنوات لن يقف أمامهُ أيّ شيء.

استقبلهم والد ليلى بترحيبٍ دافئ، وجلسوا جميعًا يتحدّثون عن المستقبل، عن الحياة التي ينتظرها يوسف وليلى، وعن فرحتهم بأنّ حبًّا دام لسنوات سيتوج بالزواج أخيرًا.

وبعد لحظاتٍ من النقاش، قال والد ليلى بحسم:

أنا موافق، ليلى ابنتي، يوسف ابني وسعادتهما هي الأهم عندي.

كادت ليلى أن تطير فرحًا، ويوسف لم يكن أقل منها سعادة، كل شيءٍ كان يسير كما حلما تمامًا.

لكنّ الفرحة لم تدم طويلًا.

بعد أيّامٍ قليلة، بدأ الحديث عن تفاصيل الزواج.

جلست العائلتان للاتفاق على المهر، الذهب، وتجهيزات الزواج.

كان يوسف يعلم أنّ عليه تجهيز بيت مناسب، وكان مستعدًا لكل المسؤوليات، لكنّهُ لم يكن يتوقع أنّ الأمور ستصبح أصعب ممّا ظنّ.

عمل يوسف بإحدى المستشفيات وبدأ في جمع المال، لكنّ والده بدأ في تجهيز بيت خاص بهِ في القرية.

بالتأكيد قد اتفق يوسف وليلى على كل شيء، من أول حبّهما للغة العربية، وأُمنياتهما بأن يتحدّث أطفالهما باللغة العربية الفُصحى،

وأنهما سيستقرانِ في القاهرة، وبعد مدّة يعيشانِ في مكة للأبد.

بدت خطّة يوسف مُتناقضة بالنسبةِ لأهل ليلى، كيف يبنى ويجهز بيتًا في القرية ويقول سنعيش في المدينة؟!

لذلك قرر والد ليلى أن يشترط مبلغًا كبيرًا من المال للذهب والشبكة، كي لا يبدو أمام الجميع أنّ ابنتهُ لم تحصل على ما يليق بها.

لكنّ الحقيقة هي التجربة المريرة التي مرّ بها والد ليلى مع إحدى أخواتها.

أمَّا عن المبلغ المطلوب فقد تجاوز إمكانيات يوسف، لكنّهُ حاول أن يكون دبلوماسيًا وقال:

عمّي، سأفعل كل ما بوسعي لإسعاد ليلى، لكنَّني في بداية حياتي، وهذا الرقم صعب بالنسبةِ لي الآن.

لم يكن والد ليلى مُتساهلًا، وردّ بحزم: يوسف، أنا لا أشكك في نواياك، لكنّ هذهِ عاداتنا، ولا يُمكنني أن أتنازل عن حق ابنتي.

حاولت ليلى التدخل، وقالت بلطف: أبي، يوسف ليسَ بخيلًا، هو فقط يحاول أن يكونَ واقعيًا، ونحن يمكننا أن نبني حياتنا معًا دون أن يكون المال عائقًا.

لكنّ والدها رفض بشدة، وأصر على موقفه.

حاول يوسف كثيرًا أن يجد حلًّا، تحدّث مع والده، وحاول أن يزيد من مدخراته، لكنّ الرقم الذي طلبهُ والد ليلى كان خارج قدرته تمامًا.

لم يكن أمامهُ سوى خيارين: إمّا أن يستدين ويبدأ حياته غارقًا في الديون التي حاول أن يجمعها، أو يتخلّى عن حبّ عمره!

لم يكن القرار سهلًا، فقرر أن يحاول مرة أخيرة.

ذهب إلى والد ليلى وحده، وجلس معه في محاولة لإقناعه.

قال بصوتٍ مفعم بالرجاء: عمّي، أرجوك، لا تجعل المال هو الذي يفرّق بيني وبين ليلى، لقد انتظرنا لسنوات، وحبّنا يستحق فرصة.

في الحقيقة لم يقلّ يوسف هذهِ الكلمات لكنّها كانت ما يرمي إليه.

لكنّ الرجل لم يتزحزح عن موقفه.

نظر إليه نظرة جديّة وقال: الحبّ وحدهُ لا يبني البيوت يا يوسف، إمّا أن توفر ما طلبته، أو انسَ الأمر.

خرج يوسف من بيت ليلى وهو يشعر بأنّ العالم ينهار من حوله، لم يكن يتخيّل أنّ عقبة كهذهِ يمكن أن تُنهي قصة حبّهما.

في الأيّام التالية، حاولت ليلى إقناع والدها، لكنّها فشلت، كان الرجل عنيدًا، ويرى أنّ موقفه هو الصواب.

وفي أحد الأيّام، بينما كانت تتحدث مع يوسف عبر الهاتف، قالت لهُ بصوتٍ حزين: يوسف، لا أعلم ماذا أفعل؟

حاولت بكل الطرق، لكنّهُ لا يستمع إليّ.

تنّهدَ يوسف بعمق، وكأنّ قلبه يودع شيئًا عزيزًا عليه، ثُمَّ قال بصوتٍ متعب: أعتقد أنّ هذا هو قدرنا ليلى.

لم يكن هناك وداع رسمي، لم يكن هناك قرار واضح.

فقط صمت طويل بدأ يتسلل بينهما، كما لو كان يعرفانِ أنّ النهاية اقتربت، لكنّهما كانا عاجزين عن مواجهتها.

عادت ليلى إلى غرفتها بعد جلسة عائلية طويلة مع والدها محطمة القلب.

كانت قد بذلت كل ما بوسعها لإقناعه بالتخلي عن طلبه المبالغ فيه للذهب والشبكة، لكنّها فشلت.

لم يكن والدها متعنتًا فقط، بل كان يرى الأمر مسألة كرامة وشرف، وليس مجرّد طلب مادي.

حينَ تقدّمَ يوسف لخطبتها، شعرت أنّ حلمها أوشكَ أن يكونَ حقيقة، لكنّ المال كان العائق الأكبر.

هي تعلم أنّ يوسف ليسَ بخيلًا ولا عاجزًا، لكنّهُ في بداية حياته، ويحاول بناء مستقبله، ومع ذلك لم يكن والدها مقتنعًا، بل ويعتبر أنّ أيّ تنازل سيجعل الناس يتحدّثون عنهُ بشكلٍ سيء.

وفي إحدى الليالي، عندما اتصل بها يوسف ليسأل عن آخر التطورات، قالت لهُ بصوتٍ مخنوق بالدمع: حاولت يا يوسف، أقسم لك أنّني حاولت بكل الطرق.

تنّهد يوسف بعمق وقال بحزن: أعلم ذلك ليلى، لكنّني بدأت أشعر أنّ الأمور تخرج عن سيطرتنا.

رغم كل شيء، لم تستسلم ليلى.

استمرت في محاولة إقناع والدها، تارة بالكلام الهادئ، وتارة بالجدال، لكنّها لم تحقق أي تقدُّم.

في إحدى الليالي، قررت أن تخوض آخر وأكبر محاولاتها.

جلست أمام والدها وقالت بحزم: أبي، إن كنت تحبّني حقًا، فاترك لي حريّة الاختيار، الزواج ليسَ عرضًا للبيع، وأنا لا أُريد شيئًا سوى يوسف.

لكن والدها غضب من كلماتها ورد بحدة: لا تتحدثي معي بهذهِ الطريقة!

أنا أفكر في مصلحتكِ، وأعرف ما هو الأفضل لكِ، المال ليسَ كل شيء، لكنّهُ معيار مهم لاستقرار حياتكِ.

صاحت ليلى بيأس: الاستقرار ليسَ في الذهب، الاستقرار في أن أكون مع الرجل الذي أُحبّ! كيف يمكنك أن تحرمني منهُ لمجرّد أرقام على ورقة؟

لكنّ والدها وقف بحزمٍ وقال بصوتٍ قاطع: لقد قلت كلمتي، وهذا قراري النهائي، يوسف لن يكون زوجكِ.

خرجت ليلى من الغرفة وهي تشعر أنّ العالم كله ينهار من حولها.

كانت قد جربت كل شيء، ولم يبقَ أمامها سوى الاستسلام للواقع الذي فُرض عليها.

عندما اتصل بها يوسف في اليوم التالي، لم ترد عليه في الحال، كيف تُخبرهُ أنّ كل شيء انتهى؟!

كيف تقول لهُ أنّها لم تعد قادرة على القتال أكثر؟

لكنّها أخيرًا أجابت، وبعد لحظات من الصمت، همست بصوتٍ متعب: يوسف، لا فائدة، لقد انتهى كل شيء.

كان يوسف يعرف أنّها بذلت ما بوسعها، لكنّهُ لم يستطع قبول الأمر بسهولة.

قال بصوتٍ يائس: ليلى، لا تقولي هذا، لا يمكن أن ينتهي كل شيء هكذا.

لم يكن هناك وداع طويل، لم يكن هناك صراخ أو لوم، فقط صمت طويل بينهما، وكأنهما يستوعبان أنّ الحُبّ وحدهُ لا يكفي دائمًا.

مرّت الأشهر، وبدأت الحياة تمضي دون أن تنتظر أحدًا.

يوسف انشغل في عمله، لكنّهُ كان يشعر أن شيئًا بداخله قد انكسر، شيئًا لن يعود كما كان.

أمَّا ليلى، فقد أصبحت فتاة صامتة، لم تعد تهتم بالأحاديث العائلية عن الزواج، ولم تعد تضحك كما كانت من قبل.

كانت تمضي وقتها بين العمل والمنزل، محاولة إقناع نفسها أنّ النسيان ممكن، رغم أنّها تعرف أنّ بعض الذكريات لا تموت أبدًا.

وفي أحد الأيّام، وصلتها رسالة قصيرة من يوسف بعد غيابٍ طويل: أتمنّى أن تكوني بخير.

نظرت إلى الرسالة طويلًا، ثُمَّ أغلقت هاتفها دون أن ترد.

لم يكن هناك شيء لتقولهُ بعد الآن.

هكذا انتهت قصة حبّ استمرت لسنوات، لا بسبب الخيانة، ولا بسبب عدم الحبّ، بل لأنّ المجتمع والعادات أقوى من مشاعرهما.

وفي أحد الأيّام جلس يوسف في زاوية غرفته، والضوء الخافت من النافذة يلقي بظلال طويلة على جدران المكان.

يداه ترتعشان وهو يمسك بالقلم، لكنّ العَبرات التي تسيل على خديه تجعل الكتابة صعبة.

هو يعلم أنّ هذهِ الكلمات ستكون آخر ما يتركهُ لها، آخر أثر لهُ في حياتها.

يبدأ بالكتابة بخطٍّ غير واضح، وكأنّ كل حرف يؤلمه:

حبيبتي، لا أعرف كيف أبدأ، لأنّ كل كلمة أكتبها تشعرني وكأنّني أطعن نفسي، لكنّني أعلم أنّني يجب أن أفعل هذا، لأنّني لم أعد أستحق أن أكونَ في حياتك.

لقد أصبحت عبئًا عليكِ، وأنا لا أُريدُ أن أكون السبب في دمعكِ بعد اليوم.

الحياة لم تكن عادلة معنا، وأنا أعلم أنّني قد فشلت في أن أكون الرجل الذي كنتِ تستحقينه.

حاولت بكل ما في وسعي أن أكون قويًّا، لكنّني الآن أُدرك أنّني لم أكن سوى حجر عثرة في طريقكِ.

أنتِ تستحقين كل شيء جميل في هذهِ الحياة، وأنا لم أعد قادرًا على أن أكون جزءًا من هذا الجمال.

لذلك، أرجوكِ اتركيني وراءكِ، اذهبي وعيشي حياتكِ بحريّة، دونَ أن تنظري إلى الوراء.

أنتِ شخص رائع، مليء بالحُبّ والحياة،

ولا يجب أن أكون أنا سببًا في حزنكِ.

أشكركِ على كل اللحظات التي جعلتني أشعر أنّي إنسان يستحقّ الحبّ.

أشكركِ على كل الابتسامات التي منحتني إيّاها،

وعلى كل العَبرات التي لم نكن نستحقها.

لكن الآن، حان الوقت لكي أتركِكِ تعيشين حياتكِ، دونَ أن أكون أنا الظلّ الذي يحجب ضوءها.

أرجوكِ، لا تحزني عليّ، أنا لستُ سوى فصلٍ من فصول حياتكِ، فصلٌ يجب أن ينتهي حتّى تبدأ فصولًا جديدة مليئة بالأمل والسعادة.

وداعًا حبيبتي.. وداعًا إلى الأبد.

في الحقيقة لم يقل يوسف تلك الكلمات، وإنما اكتفى فقط بكتابة أتمنّى لكِ التوفيق في حياتكِ.

لكنّهُ كان يتمنّى لو قالها في رسالة الوداع. كلماته لم تعبر عن مدى الألم الذي يشعر به؛ إذ أنّ كل كلمة كان يكتبها تزيدهُ جراحًا.

اعتقد يوسف أنّهُ يُضحي بحبّهِ من أجل مَن يُحبّ أو هكذا فكر، لكن وللأسف الشديد عَلِمَ أنّهُ كان يضحي بمَن يحبّ، حتّى لو كان الثمن هو فقدانها للأبد.

وبعد سنواتٍ طويلة، وأثناء جلوس يوسف على كرسيّه القديم في شقته الصغيرة، حيث النافذة مفتوحة على مصراعيها، لكن الهواء الذي يدخل لا يبدو أنّهُ ينعش شيئًا في داخله.

بين يديهِ صورة قديمة لها، ابتسامتها التي كانت تملأ حياته بالضوء، تبدو الآن وكأنّها تُذكرهُ بكل شيء فقده.

يداهُ ترتعشان وهو يُحدّق في الصورة، والدموع تتساقط على الزجاج الذي يحمي الذكريات.

ويُحدّث ليلى في نفسه ويقول: لو كنتُ أعلم أنّ الحياة ستكون بهذهِ القسوة، لما تركتكِ أبدًا. كنتُ أظنّ أنني أفعل الصواب عندما طلبتُ منكِ أن تكملِ حياتكِ دوني، لكنّني الآن أُدرك أنني كنتُ جبانًا.

كنتُ خائفًا من الظروف، من الفشل، من أن أجرحكِ أكثر، لكنّني لم أكن أعلم أنّ أكبر جرح سأسببهُ لكِ هو أن أتركك.

كل يوم مُذ ذلكَ الحين، أعيش في سجنٍ من الندم.

أتساءل ماذا لو كنتُ قويًا بما يكفي لمواجهة الصعاب معكِ؟

ماذا لو تمسكتُ بيدكِ بدلًا من أن أدفعكِ بعيدًا؟

كنتُ أظن أنني أحميكِ، لكنني كنتُ فقط أهرب من نفسي.

الآن، بعد كل هذهِ السنوات، أرى حياتي وقد أصبحت فارغة، لا شيء يملؤها سوى الذكريات التي تؤلمني أكثر كل يوم.

أتساءل إن كنتِ سعيدة الآن، إن كنتِ قد وجدتِ الشخص الذي يستحقكِ أكثر منّي، لكنني أعلم أنني لن أعرف أبدًا، لأنني خسرتكِ إلى الأبد.

أتمنّى لو كان بإمكاني العودة بالزمن، لو كان بإمكاني أن أكون الرجل الذي كنتِ تستحقينهُ.

لكن الوقت لا يرحم، والندم لا يُغيّر شيئًا.

كل ما أستطيع فِعلهُ الآن هو أن أعيش مع هذا الألم، مع هذهِ الذكريات التي لن تتركني أبدًا

حبيبتي، لو كنتِ تعلمين كم أندم، كم أتمنّى لو كنتُ تمسكتُ بكِ رغم كل الظروف.

بعد عام، سمع يوسف أنّ ليلى خُطبت لشخصٍ آخر، شخص استطاع أن يدفع ما طلبهُ والدها. شعر بوجعٍ في قلبه، لكنّهُ لم يكن غاضبًا منها،

كان يعلم أنّها لم تختر الفراق، بل فُرض عليها.

أمَّا هو، فاستمر في حياته، لكنّه لم ينسَ أبدًا الفتاة التي أحبّها من كل قلبه، والتي ضاعت منه ليس لأنّها لم تُحبّه، بل لأنّ الحُبّ أحيانًا لا يكون كافيًا!

وهكذا، انتهت قصة حُبٍّ لم يكن ينقصها شيء، سوى أن يكون العالم أكثر عدلًا.

شعر يوسف بالذنب لسنواتٍ طويلة، وكأنّهُ خان حبّه لليلى بتخلّيهِ عنها.

تساءل في داخله: هل كان بإمكاني أن أفعل المزيد؟

هل كان عليّ أن أُصرَ أكثر؟

هذهِ الأسئلة كانت تُلاحقهُ في كل لحظة، خاصّةً عندما يتذكر الابتسامة التي كانت تعلو وجهها، أو اللحظات الجميلة التي قضاها معها.

بقيَ الشعور بالذنب يُرافقهُ كظلٍّ خفيف، حتّى عندما حاول أن يبني حياتهُ من جديد، كانتْ ذكراها دائمًا موجودة في زاويةٍ من قلبه، كحلمٍ لم يكتمل، يشعر أحيانًا أنّهُ خان نفسه قبل أن يخونها، لتخلّيهِ عن الحُبّ الذي يؤمن به.

مع مرور السنوات، قرر يوسف أن يعيش حياته بكل ما تحملهُ الكلمة من معنى، بدأ يركز على بناء مستقبله المهني، وسافر إلى مُدنٍ جديدة، وخاض مغامرات مختلفة، تعرّفَ خلالها على أشخاص جُدد وخبرات متنوعة.

علّمتهُ الحياة عِدّة دروس، تُعطيهِ الدرس يليهِ الآخر، حتّى أصبح أكثر نضجًا وحكمة.

لكن ورغم كل ما حققهُ ظلّ جزءًا من قلبه مرتبطًا بها، بليلى.

لم يكن قادرًا على نسيانها تمامًا، إذ كانت ذكراها تطلّ برأسهِ بينَ الحينِ والآخر، خاصّةً في اللحظات الهادئة التي كان يجلس فيها مع نفسه.

يشعر بالفضول ليعرف كيف هي، وهل هي سعيدة، وهل حققت أحلامها؟

لذا بدأ يطمئن عليها بطُرقٍ غير مباشرة، كأن يسأل عنها من خلال الأصدقاء المشتركين،

أو يُتابع أخبارها من بعيدٍ عبر وسائل التواصل الاجتماعي، دونَ أن يتدخل في حياتها بشكلٍ مباشر.

يُريد أن يطمئنَّ عليها دونَ أن يفتح جراح الماضي، أو يُسبب لها أيّ إزعاج.

في إحدى المرّات، سمع من صديقٍ مشترك أنّها قد تزوجت وأصبحت أُمًّا، وتعيش حياة مستقرة وسعيدة.

شعرَ حينها بفرحٍ غريب، فرح مختلط ببعض الحُزن.

كان سعيدًا لأنّها وجدت السعادة التي تستحقها، لكنّهُ في الوقت ذاته شعر بحزنٍ خفي؛ لأنّ سعادتها لم تكن معه.

أيقنَ أنّ التعامل بمبدأ أنّ القرارات التي تأخذها الكرامة سليمة حتّى لو أوجعتنا، من أغبى ما يُمكن! لسهولة التفريط في حلم العمر.

كان القرار كارثيًا غير معتمد على شيء اِطلاقًا،

كان من المفترض التعامل بمبدأ.. أنّ الإنسان الذكي هو الذي يعرف متى يتكلّم، أمّا الحكيم فهو الذي يعرف متى يصمت، كما قال علي عزت بيجوفيتش.

أمًّا يوسف فلم يكن هذا ولا ذاك، رغم ذلك قرر أن يترك الماضي وراءهُ تمامًا، أدرك أنّ الحياة قد أعطت كلًا منهما طريقًا مختلفًا، وأنّ عليه أن يركز في مستقبلهِ هو أيضًا.

أصبح أكثر تصالحًا مع نفسه، فتوقف عن لومها على ما حدث، تعلّمَ أنّ الحُبّ الحقيقي أحيانًا يعني أن تترك الشخص الذي تُحبّهُ يعيش حياتهُ بسعادة، حتّى لو كانت بعيدًا عنك.

وهكذا، استمر يوسف في مغامرات حياته، محتفظًا بذكرى ليلى كجزءٍ جميلٍ من ماضيه،

لكنّهُ لم يعد يسمح لها بأن تُحدّد مسار مستقبله.

يعيش حاضره بكلّ ما فيه، ويحلم بمستقبلٍ جديد، بينما يطمئن من وقتٍ لآخر على تلكَ التي كانت يومًا ما جزءًا من أحلامه.

عودة من حافّة الغياب

فجأة، دوى صوت جهاز المونيتور بجوار سرير يوسف.. تيت، تيت، تيييتت ثُمَّ صمت.

صوت خافت تلاشى تدريجيًا، وكأنّ الحياة قررت أن تنسحب بهدوء.

اندفعت إحدى الممرضات إلى الغرفة صارخة: توقف القلب، توقف القلب يا دكتور عادل.

في لحظةٍ واحدة، أصبحت كل المؤشرات الحيويّة على الجهاز صفر.

لا نبض، لا ضغط، لا تنّفُس.

الصمت أصبح خانقًا، كأنّ الهواء نفسه قد تجمّد!

هرع الطبيب المُقيم الدكتور (عادل) متوتر الوجه، لكنّ ملامحهُ تحمل صرامة الأطباء في لحظات الحسم.

بدأ فورًا بإجراءات الإنعاش القلبي الرئوي، صدر يوسف يعلو ويهبط تحت يديه، دونَ أيّة استجابة.

الثواني تمرّ كالدهر.

الممرضة تهمس وهي تُراقب الشاشة: لا يوجد شيء، لا توجد أيّة استجابة.

بلا تردد، أمسك الطبيب بجهاز الصدمات الكهربيّة، ثبّتَ الأقطاب على صدر يوسف وضغط.

صعقة أولى، الجسد يرتجف بلا نتيجة.

صعقة ثانية، لحظة صمت طويلة، ثُمَّ فجأة، نقطة ضوء ترتسم على الشاشة.

خطّ الحياة يرتجف قليلًا، ثُمَّ ينبض.

_رجع، رجع!

قالها الطبيب وهو يلتقط أنفاسه، كما لو كان قد أنقذ جزءًا من نفسه.

مرّت أيّام، ولا زال يوسف تحت جهاز التنّفُس الصناعي، مستقر لكنّهُ غائب عن الوعي.

وفي صباح رمادي هادئ، دخل الطبيب غرفة العناية المركزة، وأمسك بأنبوب الجهاز الموصول بفم يوسف، ثُمَّ قال بحذر: سنجرّب إِخراج الأنبوب الآن، لنرى إن كان قادرًا على التنّفس وحده.

سحب الطبيب الأنبوب بحذر، لكنّ يوسف لم يرحّب بالعودة بسهولة، حيثُ اندفع من صدرهِ سُعال متكرر عنيف، كأنّهُ يُخرج من داخلهِ ما بقي من الموت.

في إحدى الليالي، كان يوسف قد تسلل من جناحهِ إلى صيدلية المستشفى، مقتنعًا أنّ الأدوية وحدها يُمكن أن تسرّع شفاؤه، وتُنهي الألم الذي يُطاردهُ ليل نهار.

لم يكن يبحث عن مخدرات أو هروب، بل عن حلٍّ عاجل، شيء يوقف الصراع داخله.

فتح الأدراج واحدًا تلو الآخر، وجمع كل ما ظن أنّهُ مفيد، مهدئات، مضادات اكتئاب، أدوية ذُهان، ابتلعَ كميات كبيرة دونَ وعيٍ بالجرعات أو التفاعلات، عقله المضطرب أقنعهُ أنّها جرعة شفاء لًا جرعة موت .

بعد أقل من ساعة، سقط على الأرض، اختلال في القلب، هبوط حادّ في الضغط، صعوبة في التنفس، تمّ العثور عليه في حالة حرجة، ونُقل إلى العناية المركزة فورًا.

الجرعة التي ظنَّ أنّ خلاصهُ بها، كانت أقرب إلى نهايته!

قالت لهُ (أُمّ سماح) وهي تُمسك بيدهِ المرتجفة:

لماذا يا يوسف؟ لماذا تريد أن تُنهي حياتك؟

أدار وجهه نحوها ببطء، وعيناه غارقتان في التعب، ثُمَّ قال بصوتٍ واهن: لم أكن أُريد الموت يا أُمّ سماح، فقط كنتُ أبحث عن الشفاء، طال بيَ المرض حتّى نُحلَت روحي، وأرهقني جسدي، كل يوم أعيشهُ كأنّهُ إعادة لنفس العذاب، نفس الضيق، نفس الوحدة، شعرت أنّني أختنق.

قالت وهي تجلس قربه، تحاول أن تُخفي ألمها:

ولكن يا يوسف، ما فعلتهُ لم يكن شفاءً بل خطرٌ على حياتك، لا أحد يُداوي نفسه بالهرب من الألم، بل بالصبر عليه.

أغمض عينيهِ قليلًا، ثُمَّ تمتم: لم أهرب يا أُمّ سماح، كنتُ أُقاتل، فقط ظننت أنني إن أخذت كل الأدوية دفعة واحدة، سأتجاوز كل شيء، وأنتهي من هذا الجحيم بسرعة.

نظرت إليهِ بعينينِ دامعتين وقالت بهدوء:

لكنّ الجحيم الحقيقي هو أن تفقد نفسك، وأنت تُحاول إنقاذها.

ثُمَّ حاولت أن تخفف عنهُ الموقف وتُخرجهُ من الحوار وتأنيب الضمير، فقالت: كنت تريد أن تتركني يا يوسف، بدون أن تكمل لي باقي الحكاية؟

ثُمَّ اقتربت منهُ وجلست بجانبه، وصوتها يميل بينَ المزاح والرجاء: قل لي، ماذا حدث بعد أن رفض أبوها قصة حُبّكما؟

ابتسم يوسف، ابتسامة هادئة كسورٍ هشّ بعد عاصفة، وانحدرت دموعه بلا استئذان.

حاول أن يتكلّم لكنّ السعال هاجمهُ من جديد، ارتجف صدره، وارتبكَ نَفَسه.

أسرعت أُمّ سماح، أسندتهُ بيدها خلف ظهره، وسقتهُ القليل من الماء.

ثُمَّ قالت بلطف: لا تتكلّم الآن، استرح وسأنتظر الحكاية حينَ تكون جاهزًا.

خرجت من الغرفة، وتركتهُ وحده، لكنّهُ لم يكن وحيدًا، ففي عينيهِ بقايا دموع، وعلى شفتيهِ بقايا كلمات لم تُقال.

أمّا قلبهُ فقد عاد من بعيد.. الفتى الذي أحبَّ ليلى!

نشأ يوسف يتيمًا، بلا أُمٍّ تربت على قلبه حينَ يغفو خائفًا، ولا أبٍ يربّت على كتفه حينَ يُخطئ، لا أخوة يتقاسم معهم الخبز، المزاح، والمشاجرات العابرة، ولا أقارب يزورونه في الأعياد، كان وحده تمامًا، كظلٍّ لا صاحبَ له.

مُنذُ نعومة أظفاره، لم يعرف من الحياة سوى جدران دار الأيتام، وأسرة معدنيّة باردة، ووجوه تتغيّر كل حين، المربّون يتبدلون، الأصدقاء يُتبنّون أو يرحلون، أمّا هو فبقي.

بقيَ الطفل الذي لا يُسأل عنهُ أحد.

ولأنّهُ لم يجد في الواقع ما يحتضنه، اختار أن يختلقَ عالمه، رسم لنفسهِ أبًا حنونًا، وأُمًّا متفانية، إخوة يلعب معهم، يتشاجرون ثُمَّ يتصالحون، ثُمَّ رسم طفولة وهمية كاملة بمغامرات المراحل الدراسيّة المختلفة، من الابتدائية والثانويّة والمرض ومستشفى الحُميّات.

فجميع أيّام الفرح والحزن كلّها من وحي خياله.

كانت أيّام فرحه عبارة عن استقرار حالته، وأيّام حزنه عبارة عن عدم استجابة حالته للأدوية مرّة، أو تعرُّضهِ لصعقٍ بالكهرُباء لمحاولة علاجهِ مرّة أُخرى.

وفي قلب عالمه المختلق، كانت هناك فتاة اسمها (ليلى).

لم تكن ليلى فتاةً عاديّة في خياله، بل كانت كل ما تمنّى من الحياة، كانت تبتسم له، تفهم صمته،

وتنتظرهُ حينَ يغيب.

ليستْ جميلة الملامح وحسب؛ بل صُبَّ الصفاء بروحها صبًّا.

عاشت معهُ قصصًا من السعادة والحزن، من اللقاء والفقد، من الحلم والواقع، حتّى صار لا يميّز أين تنتهي ليلى في خيالهِ وأين تبدأ الحقيقة.

مرّت سنوات، كبر يوسف وكبرت معهُ ليلى، وبدا لهُ أحيانًا أنّ الحياة أخيرًا تبتسم له، ما دام قادرًا أن يعيشها كما يُريد داخل رأسه.

لكنّ فصول المسرحيّة لم تدم طويلًا؛ بدأت الأوهام تتسلل إلى أيّامه بشكلٍ مؤذٍ، لم تعد ليلى تظهر وقتما شاء، بل صارت تظهر فجأة في زوايا المكان، تهمس لهُ وتختفي، صار يراها تضحك ثُمَّ تبكي ثُمَّ تصرخ، يسمعها حين لا يتكلّم أحد.

كاد أن يُصدق أنّها حقيقيّة، لولا أنّ الحياةَ كانت أكثر قسوة من أن تسمح لهُ بالهربِ إلى جنّتهِ المختلقة!

كانت أول نوبة نفسيّة لهُ صادمة، ظنَّ المربّون في الدار أنّهُ مريض جسدي، لكنّ الأطباء قالوا كلمتهم: يوسف مريض نفسي، بمرض ثنائي القُطب يحتاج إلى رعاية وعلاج، لم يفهم شيئًا،

كل ما فهمهُ أنّ (ليلى) التي أحبّها، صارت جزءًا من علّتهِ لا من حلمه.

دخل مصّحة نفسيّة للمرّة الأولى وهو في العشرين، لم يكن المكان كما تَصورهُ في الأفلام والكتب، بل كان كابوسًا بلونٍ أبيض ورائحة الكلور.

كان من المفترض أن تكون المصّحة ملاذًا،

لكن بالنسبةِ ليوسف كانت أشدّ قسوة من دار الأيتام، صحيح أنّ أحد أهل الخير تكفل بمصاريفه، واختار لهُ مصّحة خاصّة ذات سمعة حسنة، لكنّ السمعة شيء والحقيقة شيءٌ آخر.

المصّحة كانت سجنًا بلا قضبان!

المُمرضون تعاملوا مع المرضى كأنّهم عبءٌ أو خطر، كانوا يصرخون، يدفعون، يعاقبون على أقلّ هفوة، رأى بعينيهِ مريضًا يُضرب لأنّهُ بكى، وآخر يُقيّد بالسلاسل لأنّهُ تحدّثَ مع نفسهِ بصوتٍ عالٍ.

كان الموظفون كالخارجينَ من أزقة الجريمة،

لا من كُليّات الطب أو معاهد التمريض، لا أحد يستمع، لا أحد يُصدق، فأنت مجنون، وكلمة مجنون واحدة منهم تُسقط عنك كل حقّ.

يوسف صمت طويلًا، لم يُقاوم، صار يبتلع الدواء، يبتسم في وجه المُعذِبين، ويدفن آلامهُ في صمتٍ طويل.

مرّةً بعدَ مرّة، انتكس، وكلّما خرج من مصّحةٍ دخل أُخرى.

كل محاولة للعلاج كانت تتحوّل إلى كابوسٍ جديد، حتّى جاء القرار: إقامة دائمة في مستشفى الأمراض العقليّة!

في المستشفى الحكومي، بدا كل شيءٍ رماديًّا، الجدران، الأرض، العيون، حتّى الأحلام رماديّة.

عاشَ يوسف داخل عالمه الوهمي، يفرح مع ليلى، ويحزن معها، يختبر الحياة كما تمنّى، بكلّ تقلّباتها، حتّى جاء اليوم الذي أصبح فيهِ هذا الحلم عبئًا لا يُحتمل.

فما كان يبدو حبًّا في البداية، تحوّل إلى ضوءٍ غريبٍ في عيني يوسف، ذلك (النور) في الحقيقة كان عبارة عن إشارة مُبكرة لنوبات الهوس التي أصابتهُ لاحقًا.

استلقى بصمتٍ على سريرهِ الأبيض، وحينَ أغمضَ عينيهِ لم يرَ سقف الغرفة، بل رأى نافذة صغيرة تطلّ على حوش دار الأيتام هناك.

من خلال تلك النافذة، كانت البداية.

لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرون حينَ بدأ يشعر أنّ العالم أكثر قسوة ممّا تخيّل.

في دار الأيتام، هناك نظام حتّى وإن افتقرَ للحنان، لكن في الخارج لا قوانين تحمي الضعفاء، ولا منطق يُبرر الألم.

بعد أن خرجَ يوسف إلى الحياة بعد إتمام دراسته، يحمل شهادة ووجهًا شاحبًا، وجيبًا فارغًا، وقلبًا مُمتلئًا بالخوف.

كل ما رآهُ في العالم الخارجي بدا لهُ مُريبًا، الوجوه سريعة، النّاس تبتسم بلا معنى، الكُلّ يركض وكأنّهم يهربون من شيء، أو يطاردون لا شيء.

أوّل غرفة استأجرها كانت على سطح عمارة قديمة، بلا باب حقيقي، بلا نوافذ، بلا دفء.

عملَ في ورشةٍ للدهان، ثُمَّ كعاملٍ مؤقتٍ للنظافة، ثُمَّ طُرد.

لم يكن يفهم كيف تجري الأمور، لم يكن يطلب الكثير، فقط مكانًا ينتمي إليه!

النّاس تنظر إليهِ وكأنّهُ منبوذ!

لا أحد يُريد التعامل معهُ لكونهِ (يتيم) فقط يتيم، أو كما يُطلقونَ عليهِ بازدراء (ابن الدار) وكأنّها وصمة عارٍ لا تُمحى!

في تلكَ الأيّام، عاد إليهِ صوت ليلى، لم تكن واضحة الملامح، لكنّها حاضرة بذهنهِ دومًا.

قالت لهُ ذات ليلة: لا تثق بأحد، العالم يجمع الطيّبين ثُمَّ يبصقهم كأنّهم عار.

كُلّما ضاق قلبه، ظهرت لهُ في الزحام، في الحلم، في الشارع، في ضوء سيارة تمرّ أمامهُ، أو حتّى في صوت المذياع.

صارت (ليلى) هي الابتسامة التي لم يمنحها لهُ أحد، والكتف الغير موجود، وبينَ لحظات الانكسار والوحدة، بداخلهِ شيء آخر يتشكّل، ألا وهو الغضب.

ليسَ غضبًا طفوليًّا، بل غضبٌ حارق، صامت، من نوعِ الغضب الذي لا صُراخَ فيه، بل يضغط على أعصاب القلب حتّى يكاد ينفجر.

سأل نفسهُ مرارًا: لماذا أنا؟

لماذا لم يُخلق لي أهل؟

لماذا لا يسأل عنّي أحد؟

لِمَ لا يُرى الألم الذى اعيشه؟!

وفي لحظةٍ ما فكّر في الانتقام.

لكن مِن مَن؟

من العالم كلّه؟

من البشر؟

من النظام؟

حينها بدأ الملف الطبي ليوسف في التكوّين، لا كمجرّد أوراق، بل كمزيجٍ مُعقدٍ من الألم، الغضب، التشتُت، والحاجة الماسّة لأنْ يشعر بأنّ حياتهُ تستحقّ البقاء.

مرّت بهِ نوبات لم يفهمها أحد، هوس شديد في لحظة، اكتئاب قاتل في أُخرى، ثُمَّ نوبات صمت طويلة، تليها رغبة في الصُراخِ وسط الزحام.

كان فى كل مرّة يُقبض عليهِ فيها بسبب شجار أو انهيار، يُدوّن بالملف الخاصّ بهِ يحتاج تقييم طبيب نفسي، والذي شخصهُ بدورهِ بمرض ثُنائي القطب.

لكنّ أحدًا لم يسأل: من هذا الشاب حقًا؟

ما أول ندبة في قلبه؟

ومَن أول مَن خذله؟

ذلك لم يكن مكتوبًا في أيّ ملف.

وها هو الآن، بعد سنواتٍ من التيه، يعود من موتٍ مؤقت، تُحيطهُ أجهزة التنفس، وابتسامة عاملة تُدعى أُمّ سماح، ويسأله ضمير غامض في داخله: هل حان الوقت أن تحكي الحقيقة كلها؟

بعد قرار المسؤلون إيداعه مستشفى الأمراض العقليّة بشكلٍ دائم، والتي سبقها رحلات موجعة داخل المصحات المختلفة؛ حيثُ عانى هناك من الإهمال، والاحتقار، والتعنيف اللفظي والجسدي،

رأى بأمّ عينيهِ كيف تُسلب إنسانيّة المرضى، وكيف يعاملهم بعض الموظفين وكأنّهم مجرمون !

أدرك يوسف مع الوقت أنّ المجتمع لا يرحم مَن يُعاني بصمت، خصوصًا إن كان مريضًا نفسيًّا،

فالمريض النفسي، في نظر الكثيرين، لا يُصدّق، حتّى وإن صرخ من الألم، وإن اشتكى، فلا يُصغى إليه، بل يُوصم.

في المستشفى الحكومي، بدأ يوسف يلاحظ أنماطًا من الناس، رأى المجتمع من خلال عيونهم، وفهم من تصرفاتهم لماذا يشعر بالغربة.

رأى من أنواع الناس في التعامل مع المرضى النفسيّين المنكِرون للمرض، الذين ينكرون وجود المرض من الأساس، يرفضون الاعتراف بأنّ لدى ابنهم أو ابنتهم مرض نفسي!

يتعاملون بعناد، يُصرّون على قولهم بأنَّ ما يحدث هو تدلّل، أو ضعف إيمان، أو حسد، وغالبًا ما يضيع وقته وماله على مُحاولات السّحر والشعوذة.

قد رأي أيضًا العدوانيون، وهذا النوع من الآباء والأُمهات الذين يشعرون بالعار من مريضهم، يصرخون عليه، يوبّخونه، ويتعاملون معهُ وكأنّهُ عبءٌ ثقيل وجريمة يجب إخفاؤها.

هؤلاء لا يزورونهُ إلَّا نادرًا، وبعضهم لا يأتي مُطلقًا.

وأيضًا المُحبّون المؤذون، وهم أشدّ خطرًا ممّا يظهر، مثل الأمهات الحنونات أكثر من اللازم، ممن يقولون لأبنائهن كل لحظة: أنا خائفة أن تُصاب بنوبة، لا تُجهد نفسك؛ فهذهِ العبارات رغم نواياها الطيّبة، تزرع الخوف والقلق في قلب المريض، وتمنعهُ من استعادة ثقته بنفسه.

أمّا الخائفون الصامتون، فهؤلاء يُحبّون أبناءهم حبًا حقيقيًا، لكنّهم يخشون المرض، فيصمتون، ويتجنّبون الحديث عنه، يخشون أن يخطئوا، فيبتعدون.

وهذهِ الفجوة تزيد من شعور المريض بالعزلة، وتؤكد لهُ أنّهُ مختلف.

رأي يوسف المُتعقلّون النادرون، وهم قلة نادرة، لكنّهم موجودون، آباء وأمهات وإخوة فهموا المرض، قرأوا عنه، استشاروا أطباء، وعرفوا أنّ المريض ليس شخصًا خطيرًا أو معيبًا، بل هو إنسان يحتاج لفهم ودعم.

هؤلاء لا يلومون المريض حين يخطئ، لا يعاتبونهُ أثناء النوبة، لا يقارنونه بالآخرين، ولا ينتقدونه نقدًا مباشرًا، بل يتحدّثون بلغة الحُبّ والثقة، وهذه الفئة كانت وحدها تُشعل في قلب يوسف بصيصًا من الأمل.

أمّا من داخل الطاقم الطبي، فرأى يوسف النقيضين، الطبيب الإنسان، الذي يستمع ويصبر، ويحاول أن يرى المريض لا المرض.

والطبيب التاجر، الذي لا يرى إلَّا ملفًا ورقمًا وموعدًا وفاتورة.

رأى كل ذلكَ وفهم.

فهمَ أنّ المرض النفسي ليس وحدهُ مَن يؤذي صاحبه، بل طريقة النّاس في التعامل معهُ قد تكون أكثر فتكًا.

وفي خضم هذهِ الفوضى، كانت أُمّ سماح، العاملة البسيطة، هي الضوء الوحيد الثابت.

أُمّ سماح العاملة بالمستشفى، امرأة خمسينيّة بملامح أُمّ حقيقيّة، لا تحمل ملامح العطف الزائف أو الشفقة الباردة، بل شيئًا يُشبه الحنان الحقيقي.

عملت أُمّ سماح في وظيفتين لتربي أبناءها بعد وفاة زوجها، كانت تمسح الأرض هُنا، وتغسل الصحون هناك، لكنّها تحمل قلبًا قادرًا على احتضان كُلّ شيء، حتّى هذا الشاب غريب الأطوار، الذي لا يعرف إن كانَ يُحبّ ليلى أم أنّهُ يُحبّ فكرة أن يُحَبّ؟!

فمُذ لمحتهُ أوّل مرّة، وهو يجلس وحيدًا في ركن الحديقة، يضحك وحدهُ حينًا ويبكي وحدهُ أحيانًا، رأت فيه شيئًا يُشبه أحد أبنائها.

اقتربت منه دون ضجيج، تحدّثت معه بصوتٍ ناعم، وشيئًا فشيئًا، بدأ يأنس لها.

كانت تحكي له عن حياتها، عن أولادها الخمسة، وخاصّةً ابنها المشاكس، الذي يعمل في ورشة لحام، ويكسب رزقه بعرق جبينه، لكنّهُ لا يزال كثير المتاعب.

ورغم ذلك، كانت تجمع لهُ المال في جمعيّة سرّية لتزويجه، حتّى تضمن له حياة مستقرة وسعيدة.

شيئًا فشيئًا، بدأت تقترب من يوسف، لا تسأله مباشرة، لا تضغط عليه، فقط تحكي له عن أولادها، عن ابنها المشاغب الذي يعمل في ورشة لحام، لكنّهُ يطيعها؛ لأنّها أدخلته جمعيّة للزواج.

تحكي عن أشياء بسيطة، لكنّها جعلت يوسف يشعر بشيء لم يعرفهُ مُنذُ زمن.. الأمان.

مرّت الأيّام، وبدأ يوسف يبوح، لم يحدث فجأة، بل بالتدريج، كان أول ما قاله: هل تعتقدين أنّ ليلى تُحبّني؟

ابتسمت أُمّ سماح، ولم تسألهُ مَن ليلى؟

قالت فقط: إذا كانت تُحبّك، لا بُدّ وأنْ تُحافظَ عليها.

ومن هنا بدأت الحكاية.

حينَ يتكلّم الصمت

حين بدأ يوسف يروي، لم تكن حكايته متماسكة، كانت أشبه بقطع مبعثرة من زجاجٍ مكسور، يتكلم عن ليلى كأنّها هنا، سألتهُ أُمّ سماح، فلم يُجبها، لكنّهُ تابع حديثه: هل قابلتها من قبل؟

كانت هنا يوم العيد أليس كذلك؟!

كانت أُمّ سماح تصغي دون أن تُكذّب أو تُصحح، فقط تنظر بعينين فيهما صبر الأمهات.

قال لها ذات مرّة: كنت أرى النور في وجهها لكن لم يكن نورًا، بل كان شرارة أول نوبة، لم أكن أعرف، كنت أعتقد أنّها بداية حياة، اتضح لي أنّها بداية مرض.

كانت نوبات يوسف تأتي على حين غرّة، تبدأ بابتسامة عريضة، ثُمَّ شرود، ثُمَّ كلام بلا ترتيب، ثُمَّ خوف فبكاء، ثُمَّ هياج تام.

وفي كل مرة، يُودع في غرفة مغلقة، وتُحقن في وريده أدوية لا يعرف اسمها، ومرات أُخرى يصعق بالكهرباء بعد أن يوضع شيء لا يعرفه بينَ أسنانه.

ومع الوقت، صار يوسف يعرف المرض أكثر من الأطباء، صار يلاحظ الفروق بين المريض بالفصام ومَن يُعاني اضطرابًا وجدانيًا،

راقب ردود أفعال أهالي المرضى في الزيارات، الأمّ التي تبكي وتُقبّل ابنها وتقول لهُ: هل أخذت دواؤك؟

والأبّ الذي يجلس صامتًا كأنّ العار يجلس على كتفه، والزوجة التي تزور زوجها مرة، ثُمَّ لا تعود أبدًا.

رأى مَن يأتون كل أسبوع، ومَن لا يأتون إطلاقًا، رأى الحُبّ والخوف والخذلان، ورأى نظرات العاملين حينَ ينسى المريض اسمه، أو يرتجف من صوت.

رأى الكذب أكثر من الحقيقة.

أنت صامت طول الوقت يا يوسف!

سألتهُ أُمّ سماح ذات مرة.

ردّ بعد صمتٍ طويل: لأنّني أُحبّ أن أسمع. النّاس عندما تتكلّم تكشف نفسها، وأنا أبحث عن الحقيقة، لأنّ كل شيء من حولي كذب.

حتّى ليلى؟!

قالتها مبتسمة.

هزّ رأسه ببطء: ليلى؟

ليلى كانت أفضل شيء في حياتي، كانت كذبة، نعم، لكن كذبة فيها رحمة.

تنّهد ثُمَّ تابع: أتدرين ما الذي آلمني حقًّا؟

ليس أنّني فقدتُ عقلي، بل لأنّني كنت وحدي حينَ كنت أفقده.

لم يقل لي أحد: أنقذ نفسك.

لم يرني أحد وأنا أنهار، وأنا أستيقظ مفزوعًا من النوم، وأنا أُحادث الجدران، لم يسأل أحد: لماذا لم يعُد يوسف يضحك كما كان؟

فقالت له أمّ سماح: أحيانًا، ينشغل الناس بأنفسهم إلى درجة لا يلاحظون فيها ما يجري حولهم إلَّا بعد فوات الأوان.

هزّ رأسه بحزن، ثُمَّ أضاف: كنت فقط أتمنّى أن يصدقني أحد حين قلت إنّني أراها قبل أن يطلقوا عليّ (مجنون).

مع الوقت، أصبح يوسف أكثر وعيًا بحالته، صار يعرف متى تقترب النوبة، ومتى ينسحب قبل الانفجار، لكنّهُ في الوقت ذاته، أدرك أنّ المجتمع ليس مستعدًا له، ولا لأمثاله.

قال لأمّ سماح يومًا: الناس يَخشَون أمثالنا، رغم أنّنا أكثر مَن ذاق التعب، ومع ذلك نظلّ مصدر خوفٍ لهم!

كانت الجملة مؤلمة، لكنّها حقيقيّة.

في غير أوقات النوبات، كان يوسف ذكيًا حاد البديهة، يقرأ، يلاحظ، يحلل، قال ذات مرة لأمّ سماح: كان من الممكن أن أُصبح طبيبًا أو محاميًا، لكن حظي جعلني ملفًا في دولاب.

قالت له: أنت فيك الروح، وطالما فيك الروح تقدر.

ضحك، ثُمَّ قال: لديّ حلم غريب، أرغب في أن أكتب عن كل ما رأيتهُ هنا، عن المرضى الذين يتلّقون العلاج، وعن مَن يُعالِجونهم، وعن الحُبّ الذي وُلد وسط الخراب، أُريد أن يعرف الناس أنّ المجنون ليسَ مجرمًا، وأنّ ليلى حتّى وإن كانت وهمًا، فقد أحبّتني أكثر من جميع مَن في الواقع.

مرّت أيّام، صار يوسف أكثر انفتاحًا، حتّى جاء ذلك اليوم الذي كانت فيه أمّ سماح هادئة أكثر من المعتاد، لم تحكِ لهُ عن أولادها، ولا عن ابنها الذي خطب أخيرًا بفضل الجمعيّة التى بذلت فيها من عمرها لتجمعها.

فقط جلست، وحدّقت فيهِ طويلًا، ثُمَّ قالت:

يوسف، حكيت كثيرًا عن ليلى، عن دار الأيتام، عن المصّحات لكن لم تحكِ لى عنك، أنت الحقيقي، ليسَ مَن بداخل المرض، بل مَن قبله.

أنا؟

قالها مستغربًا.

قالت: نعم، يوسف الذي كان يحلم أن يعيش حياة عادية، يوسف الطفل، لا الشخصية التي وضعهُ الناس فيها.

صمت طويلًا، ثُمَّ قال: لا أعرف مَن هو يوسف، أعتقد أنّني نسيت، لكن ما أعرفهُ أنّي إلى اليوم انتظر أن تخرج ليلى من بين الأدوية، وتقول لي: قُم، لم تنتهِ حكايتنا بعد.

الوهم الأخير

في تلك الليلة، لم ينم يوسف، جلس على سريرِهِ المعدني، يحدّق في السقف المتشقق، والضوء الخافت ينسكب من خلف الباب، وكأنّهُ خيط أمل لا يجرؤ على الدخول كاملًا!

كانت كلمات أمّ سماح تدور في رأسه: احكِ لي عنك، أنت الحقيقي.

لكنّهُ لم يعرف مَن هو الحقيقي.

هو الذي نشأ في دار أيتام؟

هو الذي اخترع ليلى ليحبّ ويُحَبّ؟

أم هو هذا الجالس الآن بينَ جدران مستشفى الأمراض العقليّة، يعدّ السنين على أصابعهِ ولا يعرف في أيّ عامٍ يعيش؟!

أغمض عينيه، فرأى ليلى.

كانت تقف في بستان، ترتدي فستانًا أبيضًا، وعلى رأسها طرحة شفافة، لكنّها لا تمسك وردة،

ليلى لا تُحبّ الورد.

طالما قال لها: لماذا يا ليلى لا تُحبّين الورد؟

هذهِ الجملة بقيت عالقة في ذهنه.

هل كانت ليلى تعلم أنّها ستذبل بداخله؟

هل كانت وهمًا يعرف متى يختفي؟

استيقظ يوسف من غفوتهِ على صوت الممرضة تنادي لتوزيـع الدواء.

مدّ يدهُ بهدوء، تناول عدّة أقراص بألوانٍ مختلفه، بلعها دونَ أن يسأل.

في السابق، كان يسأل: ما وظيفة كُلّ نوع من الأدوية؟

لكنّهم ملّوا من إجابته، فملّ هو من السؤال.

مرّت الأيّام وما زالت أمّ سماح تأتي، تجلس بجانبه، تحكي، تسأله، وتراقب التغيّرات في حالته بصبرٍ نادر.

لاحظت أنّهُ صار أكثر صمتًا، لم يعد يتحدّث عن ليلى بنفس الحماس، ولا يرسم بيديه في الهواء وكأنّهُ يراها.

لكنّها لم تفرح؛ إذ رأت في عينيه شيئًا آخر: الفراغ.

قالت له ذات يوم: يوسف، ليس من الضروري أن تختفي ليلى، حتّى لو كانت وهم، لأنّها تجعل الدُّنيا أهون عليك.

رد بنبرةٍ هادئة: لكنّني أصبحتُ خائفًا منها، لما كانت تضحك، كنت أفرح، الآن كلّما تضحك، أخاف أن تكون بداية نوبة.

سكت قليلًا، ثُمَّ أضاف: كنت أحبّها، الآن أصبحت أخافها، كيف يتحوّل الحُبّ لألم والطمأنينة لخوف؟

لم تجد أمّ سماح إجابة، فقط أمسكت يده، وضغطت عليها بخفة.

في أحد الأيّام، قرر يوسف أن يكتب.

طلب ورقة وقلمًا، وجلس ساعات يكتب بلا توقف.

كتب عن ليلى، عن دار الأيتام، عن المصّحات، عن الغُرف المغلقة، عن الضرب والإهانة، عن الممرض الذي كان يصفعهُ لمجرّد أنّهُ سأل سؤالًا، عن الطفل الذي كان يتحدّث إلى الحائط، ثُمَّ اختفى في يومٍ بلا وداع.

كتب عن كل شيء، ثُمَّ توقف فجأة، وكتب في السطر الأخير.. أنا لست مجنونًا، كنت وحيدًا مقطوعًا.

في مساء ذلك اليوم، لم يخرج يوسف من غرفته.

قلق أحد العاملين بالمستشفي وطلب من أحد الممرضين الاطمئنان عليه.

فتح الباب ببطء، فوجد يوسف جالسًا على الأرض، يهتز جسده للامام والخلف ، ممسكًا بالورقة، وعيناه مفتوحتان، لكنّهما لا تريان.

لم يكن فاقدًا للوعي، لكنّهُ كان بعيدًا.

بمجرّد أن فتح الباب ورأي أمّ سماح واقفة خلف الممرض، قال لها: لقد كتبت كل شيء، لكن لم أعرف أن أكتب مَن أنا؟!

ابتسم الممرض بغرابة، لكنّ أمّ سماح ردت عليه:

أنت مازلت تستطيع أن تحكي، وتستطيع أن تُحبّ حتّى لو ليلى ليست حقيقية.

رد غاضبًا: لكنّني تعبت، ليس من المرض، بل من الحرب، كل يوم حرب جديدة، كل يوم لا بُدّ وأن أصدّق بأنّ ما بداخلي خطأ ووهم وضلالات.

اقتربت منه، وقالت: لا بُدّ وأن تكون أنت يوسف، لا بُدّ وأن تتعلّم أن تحمي نفسك ممّا بداخلك.

وحين سألته أمّ سماح: لو خرجت من هنا يومًا ما، ما أول شيء ستفعله؟

قال مبتسمًا: سأبتاعُ وردًا وأضعهُ في كل مكانٍ بالبيت، حتّى لو لم تُحبّهُ ليلى، وسأبتاعُ كتبًا وسأصنع مكتبة كبيرة، وأضع بها كل كتب أنيس منصور.

رُّبما لم يكن يوسف مجنونًا، رُّبما كان فقط إنسانًا لم يجد من يُمسك بهِ حين سقط.

خلق لنفسه ليلى، لأنّ العالم كان خاليًا من الأمل.

ومع كل الأوهام ظلّ قلبه ينبض، نبضه يُشبه الورد.

في إحدى حوارات يوسف مع أمّ سماح، حكى لها عمّا فعل بعد خروجهِ من دار الأيتام،

كان يوسف شابًا في مقتبل العمر، خرج لتوّهِ من دار الأيتام؛ حيثُ قضى سنوات طفولته وصباه، لم تكن حياته سهلة، فقد عانى من الحرمان العاطفي والاجتماعي، ممّا ترك في نفسه ندوبًا عميقة.

لكن ما جعل حياته أكثر تعقيدًا هو إصابته باضطراب ثنائي القطب، ذلك المرض النفسي الذي يجعلهُ يتأرجح بينَ حالات من الهوس الشديد والاكتئاب العميق، خلال فترات الهوس، كان يوسف يشعر بطاقة هائلة تدفعه إلى القيام بأفعال متهورة وغير متوقعة، وكأنّهُ يعيش في عالم آخر، إذ لا حدود ولا قيود.

حكى لأمّ سماح انتحاله لشخصية مندوب من رئاسة الجمهورية، قال: أنّهُ في إحدى تلك الليالي التي تسيطر فيها نوبة الهوس عليه، شعر وكأنّهُ قادر على تحقيق المستحيل.

كان يشعر بأنّ العالم بأسره بين يديه، وأنّهُ يُمكنهُ تجاوز أيّة حدود مهما كانت صارمة، قرر أن يثبت لنفسه وللعالم أنّهُ قادر على خداع النظام بأكمله، وأنّهُ يمكنه الوصول إلى أماكن يعتبرها الآخرون مستحيلة.

ارتدى يوسف بذلة رسميّة أنيقة، ووضع ربطة عنق مكتملة الأناقة، وحمل حقيبة جلدية مليئة بأوراق عشوائية لا معنى لها، لكنّها بدت

مهمة للغاية لأيّ شخص يراها، بتلك الهيئة، توجّه إلى مكتب المحافظ، مقتنعًا بأنّهُ سيتمكن من تحقيق ما يُريد.

عند وصوله إلى البوابة الرئيسية لمكتب المحافظ، واجه الحُرّاس الذين بدوا صارمين ومرتابين، لكنّ يوسف، بثقة لا تُصدق، تقدّم نحوهم وقدّم نفسه على أنّهُ مندوب خاص من رئاسة الجمهورية، مؤكدًا أنّهُ جاء لتقييم أداء المحافظة في تنفيذ مشاريعها الاستراتيجية.

وبفضل مهاراته الكلاميّة الفذة وقدرته على الإقناع، استطاع أن يبث في الحُرّاس شعورًا بالثقة والاحترام، لم يطرحوا أيّة أسئلة إضافية، وسمحوا له بالدخول دون أيّة عوائق.

داخل المكتب، بدأ يوسف جولته بخطوات واثقة، وكأنّهُ يعرف المكان مُنذُ سنوات.

توجّه مباشرة إلى مكتب رئيس الموظفين، وبدأ الحديث بطلاقة عن (المهمة السريّة)، التي كُلِّف بها من قبل أعلى المستويات في رئاسة الجمهورية.

تحدّث عن ضرورة الحصول على تقارير مفصلة عن مشاريع المحافظة، مؤكدًا أنّ هذهِ المعلومات ستُستخدم في تقييم أداء المحافظ، ومدى نجاحه في تحقيق الأهداف الوطنيّة.

الموظفون، الذين كانوا مبهورين بثقته وهدوئه، استمعوا إليه باهتمام بالغ، لم يشك أحد في حقيقة هويّته، بل على العكس، بدأوا

في تقديم كل ما طلبه بسرعة كبيرة، ووعدوه بتوفير جميع الوثائق والتقارير التي يحتاجها، بل وذهب بعضهم إلى حد تقديم مقترحات لتحسين أداء المحافظة، ظنًا منهم أنّهم يتحدثون إلى شخصية مهمة قادرة على إحداث تغيير حقيقي.

قبل أن يكتشف أحد أمره، قرر يوسف إنهاء زيارته.

غادر المكتب بابتسامة عريضة على وجهه، مقتنعًا بأنّهُ نجح في خداع النظام بأكمله.

شعر بلحظة من الانتصار، وكأنّهُ قد أثبت لنفسه أنّهُ قادر على تحقيق أيّ شيء، حتّى لو كان ذلك من خلال خدعة مُحكمة.

في اليوم التالي.. كانت الطبيبة (نور) قد انتقلت للعمل بالمستشفى، وفي مكتب هادئ في مستشفى الأمراض النفسيّة، يجلس يوسف متحفّزًا بعض الشيء على طرف المقعد، بينما تجلس الدكتورة نور وهي امرأة خمسينيّة خلف مكتبٍ بسيط، أمامها ملفه الطبي، صوت عقارب الساعة مسموع، وضوء الشَّمس يتسلل من النافذة.

الدكتورة نور بابتسامة هادئة: صباح الخير يا يوسف، اسمي نور، وأنا الطبيبة النفسيّة الجديدة هنا، يشرّفني التعرّف عليك.

يوسف ينظر إليها بحذر: أهلًا، هل سيتم نقلي إلى مكانٍ آخر؟

الدكتورة نور تهز رأسها برفق: كلا، جئت فقط لأتحدّث معك، أودّ أن أستمع إليك، لا أكثر.

هل ترغب في ذلك؟

يوسف بعد لحظة صمت: الناس هنا عادةً لا تستمع بل يكتبون فقط.

الدكتورة نور بهدوء: أعدك أنّني سأستمع دون ورقة ولا قلم، فقط أنا وأنت.

يوسف ينظر من النافذة: أنا لست متأكدًا إن كنت أُريد التحدّث، أحيانًا لا أستطيع التمييز بين ما حدث حقًا، وما تخيّلته.

الدكتورة نور: هذا لا يقلل من أهمية ما تشعر به، ما تراه وتفكر فيه هو جزء من تجربتك، ومن حقّك أن تحكيه.

يوسف بصوتٍ خفيض: هل تصدقين أنّني أحببت فتاة لا وجودَ لها؟

صنعتها في رأسي، وعشت معها تفاصيل لا يستطيع أحد تخيّلها.

الدكتورة نور تنظر إليه باهتمام: ما اسمها؟

يوسف يتنّهد: ليلى، كانت حنونة، تفهمني دون أن أتكلم، وتضحك حين أُعاند الحياة، لكنّهم قالوا إنّها مجرّد هلوسة، خيال.

الدكتورة نور: حتّى لو كانت خيالًا، فهي كانت لك شيئًا حقيقيًا.

ما الذي كنت تشعر بهِ حين تكون معها؟

يوسف ينظر إلى الأرض: كنت أشعر أنّني لست وحيدًا، كنت أُصدق أنّ هناك مَن ينتظرني، مَن يراني إنسانًا، لا رقمًا في ملف.

الدكتورة نور: يوسف، هل تظنّ أنّ ليلى كانت تعوّضك عن غياب شخص آخر في حياتك؟

يوسف متردداً : رُبما، لم أعرف أُمّي ولا أبي، لم أجد أحداً يسأل عنّي، فخلقت مَن يسأل ويسمع.

الدكتورة نور: وها أنا الآن أسمعك.

يوسف ينظر إليها بنظرة مختلطة بين الاستغراب والامتنان: لم أعتد أن يقول لي أحد هذا.

الدكتورة نور: سيكون حديثنا مستمرًا يا يوسف، إن رغبت بذلك، أنا هنا، لا لأُشخصك فقط، بل لأفهمك.

يوسف: هل ستكتبين عنّي تقريرًا؟

الدكتورة نور تبتسم: سأكتب أنَّكَ تحدّثت اليوم، وهذا بحدّ ذاته بداية جيّدة.

يوسف بصوتٍ أقرب للهمس: رُبما، رُبما أُريد أن أحكي المزيد لاحقًا.

الدكتورة نور: سأكون في انتظارك.

في منتصف نهار آخر، بمكتب الدكتورة نور، كانت جلسة أُخرى مع يوسف قد بدأت بهدوء، لكنّ شيئًا ما بدا غير طبيعي مُنذُ اللحظة الأولى.

الدكتورة نور تنظر إلى يوسف، الذي يتحرّك في المكان ذهابًا وايابًا دون جلوس: يوسف هل تشعر بالراحة اليوم؟

يبدو عليكَ التوتر.

يوسف يضحك بصوتٍ عالٍ فجأة: الراحة؟

أنا في قمة النشاط!

لم أنم مُنذُ ثلاثة أيّام، لكن لا بأس، النوم مضيعة للوقت!

ينظر إليها بعينين لامعتين ويداه تتحرّكان باستمرار.

الدكتورة نور تكتب ملاحظة سريعة بهدوء، ثُمَّ ترفع نظرها إليه: وهل تناولت دواءك اليوم؟

يوسف يقترب من مكتبها بسرعة مفاجئة: الدواء؟

لا أحتاجهُ فأنا بخير!

في الواقع، أنا أفضل من أيّ وقتٍ مضى، لديَّ أفكار مُذهلة، أُفكر في مشروعٍ عالمي!

يبدأ بالحديث بسرعة، كأنّ الكلمات تتدافع دون ترتيب.

الدكتورة نور تحاول تهدئته: يوسف، رجاءً، اجلس قليلًا، دعنا نُرتب الأفكار معًا، واحدة تلو الأُخرى.

يوسف ينفجر ضاحكًا ثُمَّ يصيح: ترتيب؟ مَن يحتاج إلى ترتيب؟!

هل تعلمين مَن أنا؟

أنا الرجل الذي سيفهم العالم أخيرًا!

يمدّ ذراعيهِ كأنّه يخاطب جمهورًا وهميًا.

الدكتورة نور تبدأ تشعر بالتوتر، تلمح زر الطوارئ أسفل مكتبها: يوسف أنت الآن في نوبة، وهذا ليسَ خطأك، فقط نحتاج للهدوء.

يوسف يُحدّق بها فجأة، يتغيّر صوته: أنتِ أيضًا مثلهم تظنينني مجنونًا!

يتقدّم منها خطوة، عيونه جاحظة، تنفسه سريع.

الدكتورة نور بتوترٍ واضح: لا، لم أقل هذا، فقط أُريد أن أُساعدك، وأنا خائفة عليك لا منك.

يوسف يضرب بيدهِ على المكتب بعنف: لا تكذبي، فجميعكنّ تخفنَ من النور الحقيقي!

يبدأ بالصراخ والتلويح بيديهِ.

الدكتورة نور بصوتٍ منخفض، تمد يدها نحو الزر: يوسف، رجاءً اجلس، دعنا نتنّفس معًا.

يوسف يضحك بشكل هستيري: تنفس؟

الهواء هنا ملوّث، ملوّث بالخداع!

ثُمَّ يصرخ فجأة وهو يدور في المكتب: ليلى قالت لي ألَّا أعود، قالت إنّهم سيحبسونني من جديد!

الدكتورة نور تضغط زر الطوارئ دون أن يلاحظ، صوت خطوات خارج الباب: يوسف ليلى ليستْ هنا الآن، فقط أنا وأنت.

يصمت فجأة، يقترب منها حتّى تكاد تسمع أنفاسه:

هل تخافينَ منّي؟

هل تعلمين أنّني كنت أرسم خيالًا أسودًا لها على جدران الدار، وأقتلهُ في اليوم مائة مرة ؟

الدكتورة نور بنبرةٍ متماسكة، لكنّها مرتجفة داخليًا: أنا قلقة عليك، لأنّك في حالة لا يمكنك السيطرة عليها الآن.

يدخل طاقم التمريض بسرعة.

الممرض: يوسف، كل شيءٍ على ما يرام، سنساعدك.

يوسف ينظر حوله فجأة كمَن استيقظ من حلم:

لماذا أنتم هنا؟ ماذا يحدث؟

ثُمَّ يصرخ فجأة: لا تلمسوني، لا أُريد الحبس، لا أُريد الغياب مرّة أُخرى!

يتم تهدئته تدريجيًا بالأدوية، بينما تقف الدكتورة نور جانبًا، تضع يدها على قلبها، تتنفس بعمق، تحاول أن تستوعب ما حدث.

المشهد ينتهي على وجهها المتوتر، وعيناها معلّقتان بباب الغرفة، الذي أُغلق بعد أن نُقل يوسف لاحتواء النوبة.

في حديقة المستشفى، بعد أيَّامٍ من نوبة الهوس، الشّمس تميل نحو الغروب، والهواء عليل، يوسف يجلس على المقعد الخشبي بجوار شجرة يابسة، ينظر أمامهُ بشرود.

تدخل أمّ سماح الحديقة بخُطىً هادئة، تحمل كوبًا من الشاي الدافئ، وتقترب منه دون أن تقول شيئًا، تجلس بجانبه، وتناوله الكوب.

أمّ سماح بابتسامة دافئة: اشرب يا يوسف، الجوّ بارد.

يوسف ينظر إليها ببطء، يأخذ الكوب: شُكرًا.

يصمت لحظة، ثُمَّ يهمس: قالوا لي إنّني كنت أصرخ، وأنّكِ لم تكوني هناك.

أمّ سماح تنظر إليه بعينين دامعتين: كنت في نوبة تنظيف الدور الخامس كُلّهُ.

سمعتهم يتحدّثون، قلبي انقبض، جئت بعد دقائق، لكنّك كنت قد هدأت.

يوسف ينظر للأسفل: كنت أشعر أنّني أطير، ثُمَّ سقطت فجأة.

أمّ سماح تضع يدها على كتفه بلطف: كلّنا نسقط يا بُنيّ، المهم أن نقف بعد السقوط.

يوسف بصوتٍ خافت: لكنّني سقطت غير مرّة.

أمّ سماح: وأنا أيضًا، لكنّني لم أستسلم.

يوسف ينظر إليها مستغربًا: أنتِ؟

أنتِ دائمًا قويّة، مبتسمة.

أمّ سماح تتنّهد: قوّتي جاءت من الألم يا يوسف،

أنا أمّ لخمسة أولاد، تخيّل؟ خمسة.

يوسف: خمسة؟ كيف تتحملين؟

أمّ سماح تضحك: ببركة اللّه، بعد وفاة زوجي، وجدت نفسي وحيدة، لا معاش، لا سند، عملت في وظيفتين، عاملة نظافة هنا، ومساءً في مدرسة خاصّة.

كنتُ أعود منهكة، لكنّ وجوه أولادي تنسيني تعبي.

يوسف يستمع بانتباه: وهل يفهمون تعبك؟

أمّ سماح: ليس جميعهم، أكبرهم مُتمرد، رأسه كالحجر، يعمل في ورشة لحام، يظنّ أنّهُ قد صار رجلًا لمجرّد أنّهُ يجني المال!

لكنّني أُحبّه رغم كل شيء، وأدّخر لهُ المال في جمعيّةٍ سرًّا كما تعلم، أُريد أن أُزوّجه، وأن يرى حياة أفضل.

يوسف يبتسم بخفة: وكيف تجدين الوقت والطاقة لذلك كلّه؟

أمّ سماح تنظر أمامها: حين تُحبّ، تجد بداخلك طاقة لا تعرف من أين جاءت، أنا أُحبّهم، تمامًا كما أُحبّك يوسف.

أنت مثل أولادي، كل واحد منكم عنده حكاية ووجع، وأمل صغير ينتظر مَن يُحييه.

يوسف بصوتٍ يرتجف: لكنّني لا أملك حتّى الأمل!

أمّ سماح تنظر إليه مباشرة: بل تملكهُ، فقط غطّاه الغبار، وأنا هُنا لأمسحه.

يوسف: أحيانًا أتمنّى لو كنت ابنك حقًا.

أمّ سماح بصوتٍ مفعم بالعاطفة: وأنا أراك كذلك، النّاس تلد أولادها من الجسد، لكنّ القلب أيضًا يلد أبناءه!

يوسف ينظر إلى الكوب بين يديه: هل سيُحبّني أحد يومًا كما تُحبّين أبناءك؟

أمّ سماح بثقة: سيأتي مَن يرى جمال روحك، لا ملفك الطبي، فقط لا تفقد إيمانك بنفسك.

يوسف بابتسامة باهتة: سأُحاول من أجلك.

أمّ سماح تربت على يده: بل من أجلك أنت أولًا، يا ابني.

في اليوم التالي وفي غرفة الجلسات النفسيّة، الجوّ ثقيل، الإضاءة خافتة، والهدوء يكاد يكون خانقًا، يوسف يجلس مطأطئ الرأس، عيناه غائرتان، ووجهه شاحب، كأنّهُ يحمل على كتفيه سنوات من التعب، الدكتورة نور تراقبه بصمت، قبل أن تبدأ الحديث.

الدكتورة نور بصوتٍ منخفض: كيف حالك اليوم يوسف؟

يوسف دون أن يرفع رأسه: كما الأمس، وكما كل يوم، لا طعم لأيّ شيء.

الدكتورة نور تحاول بصبر: هل تناولت فطورك؟

يوسف يضحك بسخرية باهتة: هل تعتقدين أنّ الإنسان بحاجةٍ للطعام إذا قرر أنّهُ لا يُريد البقاء؟

الدكتورة نور تتأمل وجهه: وهل لا تُريد البقاء يا يوسف؟

يوسف ينظر إليها بعينين باردتين: البقاء؟

على ماذا؟ على جثّة مشاعر؟

على أطلال عقل لا يصمت ولا يهدأ؟

كل شيء ثقيل يا دكتورة، الجدران، الهواء، حتّى أنفاسي صارت عبئًا.

الدكتورة نور بهدوء: هل تكره نفسك؟

يوسف بلا تردد: كثيرًا، وأحيانًا أكره الجميع.

الدكتورة نور تتقدّم نحوه قليلًا: هل تكره البشر يا يوسف؟

يوسف يُغمض عينيه ثُمَّ يفتحها ببطء: هل قرأتِ (مذكرات من تحت الأرض) لدوستويفسكي؟

أنا رجل مريض، أنا إنسان شرير، أنا إنسان غير جذّاب، ذلك لم يكن اعترافًا، بل كان وصفًا دقيقًا لما يمكن أن يُشبهه، أن تكون حقيقيًّا وسط زيف العالم.

الدكتورة نور تفتح عينيها بدهشةٍ خفيفة: أنت قرأت لدوستويفسكي؟

يوسف بابتسامة ساخرة: قرأت معظم كتبه قبل أن أبلغ السادسة عشرة بدار الأيتام، حيثُ الصمت رفيق، والكتب هي النافذة الوحيدة التي لم تُغلق عليّ.

كنت أقرأ لأهرب، لا لأتعلّم، لكنّني وجدت في تلك الصفحات نفسي، ووجدت فيها كراهيتي للعالم.

الدكتورة نور بتعاطف صادق: لكنّ تلك الكراهية غالبًا ما تُخفي خيبة، لا قسوة.

يوسف يرتجف صوته قليلًا: النّاس يُخيّبون الظنّ دائمًا.

صدّقيني لو لم يكن في قلبي شيء من الحُبّ لما كرهت.

الكره في بعض الأحيان ليسَ إلّا الوجه الثاني للحُبّ، الذي لم يجد مَن يحمله.

الدكتورة نور بصوتٍ منخفض: وأنا هنا، لأحمل معك جزءًا من هذا الحمل إن سمحت لي.

يوسف ينظر إليها لأوّل مرّة بشكلٍ مباشر: كل مَن حاول من قبل، تركني عند أوّل انطفاء، وأنا كثير الانطفاء.

الدكتورة نور: ولذلك سأبقى، مهما انطفأت.

يصمت يوسف، لا يردّ، لا يبتسم، لكنّ عينيه تلمعان فجأة بشيء غريب ليس أملًا، لكنّهُ بداية اعتراف أنّهُ لا يزال هناك شيء حيّ بداخله، ولو صغير.

سألتهُ دكتورة نور عن أوّل نوبة حدثت له.

يوسف بصوتٍ هادئ كأنّه يحكي لنفسه: أول نوبة؟

كانت وأنا في الحادية عشرة، أذكر اليوم جيّدًا،

كان يوم أربعاء، السّماء رماديّة مثل الآن.

يسكت لحظة، يتنّفس بصعوبة، ثُمَّ يُكمل: كنت أراقب الأطفال في دار الأيتام يلعبون في الساحة، يصرخون، يضحكون، يدفعون بعضهم البعض، يتشاجرون ثُمَّ يتصالحون.

أمّا أنا، فجلست على طرف السور لا أُريد شيئًا.

أذكر أنّني نظرت إلى يديّ ولم أشعر بهما، لم أشعر بشيء.

ينظر إلى يديهِ الآن، وكأنّه يسترجع الإحساس الغائب.

منذُ ذلك اليوم، بدأ كل شيء يتلاشى داخلي، الألوان، الضحك، الشغف وحتّى الجوع.

أصبحت أعيش فقط، لأنّ التنّفس لا يتوقف من تلقاء نفسه.

الدكتورة نور برقة: هل حاول أحد أن يسأل ماذا بك؟

يوسف يضحك بسخرية حزينة: لا أحد يسأل طفلًا يتيمًا عن حاله.

في دور الأيتام، ما يهمّ هو أن تأكل وتنام.

أمّا كيف تشعر؟

فذاك ترف غير متاح.

ينظر إلى الأرض ثُمَّ يُتابع: صرت أنهض كل صباح متمنّيًا ألَّا يكونَ هُناكَ صباح.

أذكر مرّة، كنت أبكي في دورة المياه كي لا يراني أحد.

لكن حتّى دموعي لم تكن كافية لتخفيف ما في صدري.

صوته يرتجف: كنت أُريد فقط أن أختفي، لا أن أموت، فقط أن لا أكون.

الدكتورة نور بصوتٍ منخفض: وهل حكى لك أحد أن ما شعرت بهِ يُسمّى اكتئابًا؟

يوسف يهز رأسه: كلا، كنت أظنّهُ ضعفًا أو لعنة!

لم أكن أعرف أنّ في عقلي كيمياء تعطب، ولا أنّ الظلام ليس دائمًا من الخارج.

كانوا يقولون لي: شدّ حيلك يا ولد، الرجال لا يبكون.

يتنفس بعمق، ثُمَّ يُضيف: ومن يومها قررت أن أدفن كل شيء وأخترع كل شيء، فجاءت ليلى.

الدكتورة نور بهدوء: ليلى كانت العلاج الذي اخترعته بنفسكَ قبل أن يأتي أحدهم لينقذك.

يوسف ينظر بعيدًا: لكن يبدو أنّني اخترعتُ الدواء الخطأ؛ لأنّهُ مع الوقت صار يؤلمني أكثر ممّا يشفيني.

ساد الصمت الطويل، لكنّهُ ليسَ صمتًا ثقيلًا، بل ممتلئ بما لا يُقال، ثُمَّ ينظر يوسف نحو الدكتورة لأوّل مرّة بعينين فيهما صدق الطفولة: هل تظنّينَ أنّ أحدًا يستطيع العيش بعد كل هذا؟

بعد أن يُكسر من الداخل وهو طفل ويُنسى وهو شابّ؟

الدكتورة نور بصوتٍ مملوء بالإيمان: نعم يا يوسف، ليسَ فقط العيش، بل البدء من جديد.

الانكسار لا ينفي الحياة، أحيانًا هو ما يجعلنا بشرًا حقيقيين.

يوسف لا يردّ، لكنّهُ يُغمض عينيهِ للحظة، ولأوّل مرّة، لا يفعل ذلك هربًا، بل استراحة من كل ما حملهُ بداخله.

في فناء المستشفى، وبظهيرةٍ هادئة، المرضى يجلسون في مجموعات صغيرة، بعضهم صامت، بعضهم يضحك، وآخرون يحدّقون في اللاشيء. يوسف يجلس على كرسي خشبي قرب حوض الزرع المهمل، لكنّهُ هذهِ المرّة ليس وحده.

يقف بجانبهِ أحد المرضى الشباب، اسمهُ حسام (شابّ في العشرين يُعاني من قلقٍ مزمن، ويجد صعوبة في بدء الحوارات).

حسام بتردد: أستاذ يوسف، هل أستطيع أن أجلس بجانبك؟

يوسف ينظر إليه، ثُمَّ يبتسم بخفّة: لست أستاذًا، اجلس.

يجلس حسام وهو يرمقهُ بحذر، ثُمَّ بعد لحظة صمت: قالوا لي أنّكَ كنت تكتب أشياءً غريبة، مثل خواطر وبعض الأشياء الغريبة.

يوسف ينظر إلى السّماء: لم تكن غريبة، فقط مؤلمة، لكن أحيانًا الألم يجعلنا نكتب أجمل ما لدينا.

حسام بفضولٍ وخجل: هل تكتب الآن؟

يوسف يتنّفس ببطء: أُحاول كلّما هبط الظلام داخلي، أمسكت القلم بدل أن أختفي فيه.

يمرّ ممرض، يُحيّيهِ بابتسامة معتادة، يوسف يردّها برأسهِ بهدوء، لم يكن يفعل ذلك من قبل.

في زاوية الفناء، تُراقب أمّ سماح المشهد من بعيد، تبتسم لنفسها، ثُمَّ تُتابع تنظيف الطاولة وهي تهمس: اللهمَّ لكَ الحمد.

تمرّ فتاة في أوائل الثلاثين، مريضة صامتة، كانت لا تقترب من أحد، لكنّها تقف فجأة قريبة من يوسف، تمدّ لهُ ورقة مطويّة ثُمَّ تمضي دون كلمة.

يوسف ينظر إلى الورقة، يفتحها، يقرأ بخطٍّ مُهتز: أنت الوحيد هُنا الذي يشبهنا، وأيضًا لا يخاف منّا.

تتسع عينا يوسف، يطوي الورقة برفق، ويضعها في جيبه.

يلتفت إلى حسام: هل تُحبّ أن تكتب؟

حسام يهز رأسه: أُحاول، لكنّني أخاف أن يقرأ أحد ما أكتبه.

يوسف بنبرةٍ هادئة: إذا كتبت شيئًا يُشبهك فلا تخف، الكتابة لا تفضح، الكتابة تحرّر.

يرن جرس داخلي للإعلان عن نشاط جماعي في القاعة، يتململ البعض، ويتجاهلهُ البعض الآخر، لكنّ يوسف يقف بهدوء: هيّا نذهب، قالوا إنّهم سيفتحونَ موضوع (كيف ترى نفسك)؟

رُّبما لديَّ إجابة هذهِ المرّة.

حسام بدهشة:هل ستتكلّم؟

يوسف بنظرة فيها عُمق وتجدُد: سأتكلّم ولو بكلمةٍ واحدة فقط (أنا ما زلت هنا).

يمشي يوسف باتجاه المبنى، خطواته ليستْ واثقة تمامًا، لكنّها ليستْ هاربة.

يمشي خلفهُ حسام، مترددًا لكنّه يمشي.

أمّ سماح تُراقب من بعيد، تضع يدها على صدرها، وكأنّها تحمد اللّه أن زرعها بدأ ينبت شيئًا من حياة.

في قاعة النشاط الجماعي ،حيثُ الجدران الباهتة لكنّها مُزيّنة برسوماتٍ بسيطة صنعها المرضى.

الطاولات موزعة بشكلٍ دائري، الحاضرون من المرضى تتراوح حالاتهم بينَ الحذر، الانطواء، والضيق الصامت.

يوسف يجلس على الكرسي بجانبهِ حسام، وأمامهُ بطاقة تحمل اسمه.

الدكتورة نور تُشرف على الجِلسة، وبجوارها أخصائي اجتماعي.

الدكتورة نور تنظر للحاضرين: اليوم سنتحدّث عن سؤالٍ بسيط لكنّهُ صعب، كيفَ ترى نفسك الآن؟

صمتٌ ثقيل يعمّ القاعة، يتجنّب الجميع التقاء الأعيُن، البعض يهمس، آخرون يُحدّقونَ في الأرض، ثُمَّ ترفع الدكتورة نور نظرها نحو يوسف: يوسف هل تُحبّ أن تبدأ؟

الأنظار تتجه نحوه، بعضهم مندهش لمجرّد وجوده في الجِلسة، يوسف يصمت لحظة، يتنّفس بعمق، ثُمَّ يرفع رأسهُ ويتكلّم.

يوسف بصوتٍ واضح: أنا، كنت أرى نفسي فراغًا، كائن لا قيمةَ لهُ!

كُنتُ أظنّ أنّني انتهيت، وأنّ كل يوم يمرّ ما هو إلَّا دليل إضافي على كوني لا أنتمي إلى هذا العالم.

صمت في القاعة، الأنفاس محبوسة.

يوسف يُتابع: أمَّا الآن فأراني لم أنتهِ، فأنا لم أُخلق صدفة، ولا أعيش عبثًا.

رُّبما ما زلت تائهًا، لكنّني هذهِ المرّة أحملُ خارطة.

الخارطة ليستْ كاملة، لكنّها تُشير إلى أنّني

ما زلتُ هُنا.

يتبادل المرضى النظرات، بعضها احترام، وبعضها دهشة، حسام ينظر إليهِ بإعجابٍ واضح، بينما نجلاء الثلاثينيّة _الصامتة مُنذُ أسابيع، ترفع يدها فجأة!

نجلاء بصوتٍ مُرتعش: أنا أيضًا، كنت أظنّ أنّني مجرّد حالة، لكنّ كلام يوسف جعلني أُفكر، رُّبما أكون أكثر من ذلك.

الدكتورة نور تبتسم، تُسجّل ملاحظة، يوسف يلتفت نحو نجلاء ويهزّ رأسهُ بإقرار.

المريض حامد _وهو رجل خمسيني دائم التذمر، يقول: أنا لم أُحبّ يوسف يومًا، كان في نظري غريب الأطوار، لكنَّني أراهُ شجاعًا الآن، وأتساءل: لماذا لم أُجرّب أن أكونَ شجاعًا بدوري؟

ضحكة خفيفة تمرّ في القاعة، يوسف يبتسم لأوّل مرّة بصدقٍ أمام الجميع.

الدكتورة نور تنظر نحو يوسف: يبدو أنّكَ لم تُجب فقط عن سؤالك، بل فتحت نافذة للآخرين أيضًا.

يوسف بصوتٍ هادئ: أنا فقط قُلت الحقيقة، وكنت أظنّ أنّ الحقيقة لا تعني لأحدٍ شيئًا.

الدكتورة نور: لكنّ الحقيقةَ حينَ تُقال بصدقٍ تصنع فرقًا.

الجلسة تنتهي، المرضى ينهضون ببطء، لكن هذهِ المرّة، هُناكَ حديث جانبي، ابتسامات صغيرة، شيء خفيف تسلل إلى القاعة.. اسمهُ الأمل.

يوسف ينهض، حسام يربت على كتفه، ونجلاء تقول لهُ قبلَ أن تُغادر بصوتٍ خجول: شُكرًا لأنّكَ جعلتني أتكلّم.

انطلق يوسف الى أمّ سماح ثُمَّ وقفَ أمامها

وصمت لحظة، ثُمَّ رفع رأسهُ وقد بدا في عينيهِ بريق لم يكن موجودًا من قبل.

يوسف بصوتٍ خافت لكنّهُ حاسم: اسمعي يا أمّ سماح لدى جلسة بعد قليل مع الدكتورة نور.

أمّ سماح تبتسم: جيّد، هل ستُخبرها بشيءٍ جديد اليوم؟

يوسف ينظر إلى عينيها بثباتٍ لأوّل مرّة: سأحكي لها كُلّ شيء، كُلّ حياتي من البداية دونَ خجلٍ ولا مواربة.

عن دار الأيتام، عن ليلى، عن أوّل مرّة سمعت فيها صوتًا غير موجود، عن خوفي وحتّى عن اللحظة التي كرهت فيها نفسي.

تسكت أمّ سماح، تُتابعهُ بعيونٍ دامعة دونَ أن تُقاطعهُ.

يوسف يتنّفس بعمق: وكلماتكِ وحديثكِ أعادوني إلى شيءٍ كُنتُ قد نسيتهُ.. إلى كوني إنسان!

أنا لست حبيس مرضي، ولا نوباتي، ولا الملف رقم سبعة في الدرج.

تسكت أمّ سماح، تُتابعهُ بعيونٍ دامعة دونَ أن تُقاطعهُ.

ينظر إلى السّماء، ويُتابع وهو يزفر: أنا يوسف، الطفل الذي أراد أن يُحبّ، والشابّ الذي لا يزال يبحث عن نفسه.

ينهض بهدوء، يُصافح أمّ سماح، ويُمسك يدها لحظة قبلَ أن يتركها، ويقول بصوتٍ أقوى: شُكرًا لكِ، لأنّكِ حفرتِ فجوة صغيرة في الجدران التي كنت أحبس روحي وراءها.

أمّ سماح بحنان: اذهب يا بُنيّ واحكِ، دع نوركَ يخرج ولا تخف، فالذي خرجَ من الظلام لا يُخيفهُ الضوء.

يمشي يوسف نحو المبنى بخُطىً هادئة، وبداخلهِ شيءٌ ما قد تغيّر، ليستْ المُعاناة مَن رحلت، ولكنّ الأمل بدأ يتنّفس من جديد.

في جلسة يوسف مع الدكتورة نور، يقول يوسف بحماسٍ شديد: سوفَ أحكي لكِ كُلّ تفاصيل حياتي.

بعد أن خرجت من دار الأيتام حدثت بعض الأمور الخارجة عن السيطرة، انتحلت شخصية مندوب لرئاسة الجمهورية وذهبت إلى المحافظ، ثُمَّ ذهبت إلى المطاريد (وهم مجموعة من الخارجين عن القانون) في الجبل بعد النجاح في خداع مكتب المحافظ.

شعر يوسف بتدفقٍ هائل من الطاقة والثقة، ممّا دفعهُ إلى التخطيط لمغامرة أُخرى أكثر جرأة. كانت نوبات الهوس تدفعهُ إلى تجاوز الحدود، دونَ أن يُدرك المخاطر الحقيقية التي كان يُعرّض نفسهُ لها، قرر أن يتوجّه إلى منطقة جبليّة معروفة بوجود مُطاردين

يعيشون فيها، كان يعتقد أنّ مواجهتهم ستكون اختبارًا حقيقيًا لشجاعتهِ وقدرته على الإقناع.

في صباح اليوم التالي، ارتدى يوسف ملابس بسيطة لكنّها عمليّة، وحمل معهُ حقيبة صغيرة تحتوي على بعض الأوراق والهاتف المحمول، توجّهَ إلى المنطقة الجبليّة؛ حيثُ كان يعلم أنّ المطاريد يعيشون في كهوفٍ مخفيّة.

عندَ وصولهِ إلى منطقة معزولة أعلي سفح الجبل، بدأ في البحث عن أيّة علامات تدل على وجودهم.

وبعد ساعاتٍ من البحث، وجد يوسف مجموعة من الرجال المُسلّحين، الجالسينَ حولَ جذوةٍ من النّار.

اقترب منهم بثقة، وبدأ الحديث معهم بلهجةٍ وديّة، قدّمَ نفسهُ على أنّهُ (مبعوث من الحكومة)، وأخبرهم أنّهُ جاء لتقديم عرضٍ لهم؛ العفو الكامل عن جرائمهم إذا وافقوا على الاستسلام والتعاون مع السُلطات!

بدأ المطاريد يُنصتونَ إليهِ بعد أن كانوا مُرتابين، تحدّث يوسف بطلاقة عن (المشروع الوطني) الذي تهدف الحكومة إلى تحقيقه، وشرح لهم كيفَ يُمكن أن يكونوا جزءًا من هذا التغيير.

بفضل مهاراتهِ الكلاميّة وقُدرتهِ على الإقناع، بدأ بعض المطاريد في إظهار اهتمام حقيقي بفكرته.

أحد المطاريد، الذي بدا أنّهُ الزعيم، قدّمَ ليوسف هديّة رمزيّة كدليلٍ على حُسن النيّة (ساعة يد قديمة، لكنّها بدت ذات قيمة عاطفيّة كبيرة). قَبِلَ يوسف الهديّة بابتسامة، وشكرهم على تعاونهم، ثُمَّ غادر المكان، مقتنعًا بأنَّهُ قد نجح مرّة أُخرى في تحقيق ما يُريد.

وعلى الرغم من نجاح يوسف في خداع مكتب المحافظ وإقناع المطاريد، إلَّا أنّ هذهِ المُغامرات لم تكن دونَ عواقب.

بعد أيّامٍ قليلة، بدأت السلطات في التحقيق بالأمر، خاصّةً بعد أن اكتشف الموظفونَ في مكتب المُحافظ أنّ المندوب الخاصّ لم يكن سوى شخصيّة وهميّة، كما أنّ المطاريد بعد أن أدركوا أنَّهُ قد تمّ خداعهم، بدأوا في البحث عنهُ للانتقام.

تمّ القبض على يوسف في النهاية، وتبيّن خلال التحقيقات أنّهُ يُعاني من اضطراب ثُنائي القطب، تمّ إيداعه في مصّحة نفسيّة للمرّة الأُولى؛ حيثُ بدأ رحلة علاج طويلة ومُضنية.

كانت تلك المغامرات مجرّد انعكاس لحالتهِ النفسيّة المُضطربة، والتي كانت تدفعهُ إلى تجاوز الحدود دونَ أن يُدرك العواقب.

كانت انعكاسًا لصراعهِ الداخلي مع مرضهِ النفسي، ورغبتهِ في إثبات ذاته في عالم يبدو لهُ قاسيًا وغير عادل.

لكنّها أيضًا كانت تذكيرًا بأنّ الحياة ليستْ مجرّد مُغامرات متهوّرة، بل هي مسؤولية وتوازن بينَ الرغبة في تحقيق الذات والوعي بالعواقب.

رُّبما كانتْ تلكَ المغامرات بداية لرحلة علاج طويلة، ليتعلّم يوسف كيفيّة التعايُش مع مرضه، وإيجاد طُرق أكثر سلامًا لتحقيق ذاته.

ردّت دكتورة نور وقالت: لا لا، أنا أُريد من البداية، مُنذُ نشأتك بدار الأيتام.

صمت يوسف فترة طويلة، ووضع رأسهُ على السرير ثُمَّ بدأ الحكاية..

في حيٍّ قديمٍ منسي، بينَ الأزقة الضيّقة والمباني المتراصة، كانت هُناكَ دارٌ كبيرة، مبنى شامخ لكنّهُ مُنهك، كأنّهُ جسد عجوز يحمل فوق كتفيهِ عُمرًا من القصص الحزينة!

دار الأيتام العتيقة، تلكَ القلعة التي بُنيت لإيواء مَن لا عائلةَ لهم، لكنّها لم تكن يومًا منزلًا حقيقيًا لأيٍّ من الأطفال الذين عاشوا فيها.

كانت جدران الدار مُغطاة بطبقاتٍ من الطلاء القديم المُتشقق، تظهر تحتها ألوان أُخرى من الأزمنة الماضية، بعض النوافذ مُحطّمة، والبعض الآخر مُغلق بستائر رماديّة كثيفة، تمنع أشّعة الشَّمس من التسلل إلى الداخل، وكأنّ المكان يخشى الضوء!

كان الهواء مُشبّعًا برائحة الرطوبة والغبار، ممزوجًا برائحة الصابون الرخيص، الذي يستخدمهُ العمال لتنظيف الأرضيّات المُتشققة.

في الرُدهة الطويلة التي تقود إلى الغُرف، كانت الأصوات تتردد كأنّها صدىً لماضٍ لم يُنسَ بعد.

في إحدى الغُرف الصغيرة في الطابق العلوي، يوجد هُناكَ سرير حديدي قديم، بطانيّة رقيقة مُهترئة تُغطيه، وإلى جانبهِ خزانة خشبيّة مُتهالكة، لا تحوي سوى بضع قطع من الملابس الرثّة.

كان هذا هو عالم يوسف، الطفل الذي وُجد هنا منذُ أن كان رضيعًا، ولم يعرف أيّ عالم خارجه.

أدركَ مُنذُ صِغرهِ أنّ هُناكَ شيئًا ناقصًا، لم يكن كالأطفال الآخرين الذين يُنادى عليهم بأسماء عائلاتهم، ولم يكن هُناكَ أحدٌ يأتي لزيارته في العطلات أو المناسبات، كان عالمه محصورًا بين جدران الدار، وسورهِ العالي، وقوانينه التي لا ترحم.

كان يعرف شيئًا واحدًا فقط.. هذهِ الدار ليستْ منزله، لكنّهُ لم يعرف أيضًا أين منزله الحقيقي، أو إن كان هُناكَ مكانٌ ما في هذا الخارج ينتظره؟!

لكن في بعض الأوقات، كانت تحدث أشياء غير متوقعة، ففي المناسبات والأعياد، كانت الدار تمتلئ فجأةً بالحركة والضجيج.

يأتي الزوّار، رّجال ونساء يرتدون ملابس أنيقة، يحملونَ الصناديق المليئة بالملابس الجديدة، الألعاب، والحلويّات المُغلّفة بعناية.

كان الأطفال ينتظرون هذهِ الأيّام بفارغ الصبر، يقفون في صفوفٍ منتظمة، وابتسامات عريضة على وجوههم، وكأنّهم ممثلون في مسرحيّة كتبها شخصٌ آخر.

عندما كان الزوّار يدخلون، كانت المديرة تبتسم ابتسامة زائفة، تُصافحهم بحرارة، وتتحدّث إليهم عن العمل الإنساني العظيم الذي يقومون بهِ.

كانوا يجلسون مع الأطفال، يسألونهم أسئلة لم تكن تعني لهم شيئًا: ما اسمك؟

كم عمرك؟ هل تُحبّ المدرسة؟

كان الأطفال يجيبون بإجاباتٍ حفظوها جيّدًا، لأنهم يعلمون أنّ الإجابة الصحيحة قد تعني قطعة حلوى إضافيّة، أو لُعبة أفضل من الآخرين.

لكنّ يوسف لم يكن مثلهم؛ إذ كان يرى ما خلف تلكَ الابتسامات.

يُدرك أنّ هؤلاء الزوّار سيُغادرون بعد ساعة أو ساعتين، ولن يتذكروهم أبدًا!

يعرف أنّ هذهِ الهدايا لن تدوم، وأنّ الطعام الجيّد الذي يحصلون عليه اليوم، سيختفي غدًا ليعود الطعام المُعتاد لطبقِ الأرز البارد.

في إحدى هذهِ المناسبات، جلس يوسف في زاويةٍ بعيدة، يُراقب الأطفال يلهون بالألعاب الجديدة، لم يشعر بالرغبة في الانضمام إليهم، كان يعرف أنّ هذهِ الألعاب ستُسحب منهم قريبًا، وستُخزَّن في المستودع الذي لا يُفتح إلّا في زيارات الزوّار.

لكنَّهُ كان يُحبُّ شيئًا واحدًا في هذهِ الزيارات.. الكُتب، كان بعض الزوّار يتركون وراءهم كتبًا قديمة في بعض الأحيان، مهترئة الصفحات لكنّها مليئة بالعوالم التي لم يكن يعرفها.

في كل مرّة يحصل فيها على كتاب، كان يشعر وكأنّهُ قد هربَ من الدار، ولو مؤقتًا.

لم يكن هُناكَ أُمًّا واحدة في دار الأيتام، بل العديد منهُنَّ.

لكن لم تكن أيٌّ منهنَّ تحمل المعنى الحقيقي للأُمومة.

كانتْ سمر قاسية، صراخها يملأ الممرات، لم تكن تحتاج إلى سببٍ حقيقي لتوبّخ الأطفال.

أمَّا منى فكانتْ مُختلفة، لم تكن تصرخ، لكنّها لم تكن تهتمّ بيوسف، فهو بالنسبةِ لها كان مجرّد رقم آخر في قائمةٍ طويلة من الأطفال، الذين سيُغادرون يومًا ما.

لكنّ هدى كانتْ هي الأسوأ على الإطلاق؛ إذ كانتْ تجعل الأطفال يعملون في التنظيف طوال اليوم، لم تكن تهتمّ إن كانوا مرضى، مُتعبين، أو حتّى جائعين.

مرّت الأيّام في دار الأيتام كأنّها حلقات متكررة من مسلسل رتيب، لا فرقَ بينَ الصباح والمساء، سوى وجبة الغداء والتي هي أثقل قليلًا من العشاء.

كانت الدار مثل آلة ضخمة تعمل بإيقاعٍ مُمّل، لا شيء جديد يحدث، ولا شيء قد يُغيّر من حقيقة أنّ هؤلاء الأطفال مجرّد أرقام في دفاتر الحكومة.

في صباح أيّام الزيارات، يتحرّك الجميع في أرجاء الدار بوتيرةٍ مختلفة، الأمهات البديلات كنّ يصرخنَ في وجوه الأطفال: رتبوا أسرّتكم جيّدًا، لا أُريد أن أرى أيّة ملابس مُتسخة!

أمَّا المُديرة _السيّدة ذات القلب الحجري، كان الأطفال في دار الأيتام يخافون من أشياء كثيرة، الظلام، الوحدة، الجوع، العقاب، لكنّ أكثر شيء كانوا يخافونهُ هو المُديرة.

كانتْ امرأة صارمة، وجهها دائمًا خالٍ من أي تعبير عاطفي، كأنّها تمثال من الجليد، لم يسبق لأحد أن رأى ابتسامة حقيقيّة على وجهها، وإنْ حدث فستكون ابتسامة زائفة، كابتسامة الذئب قبلَ أن ينقضّ على فريسته!

حينَ كانت تمشي في ممرّات الدار، يتوقف الأطفال عن اللعب، يبتلعون ضحكاتهم، ويشيحون بوجوههم بعيدًا، وكأنّ النظر في عينيها جريمة!

لا تركضوا في الممرّات، رتبوا أسرّتكم جيّدًا، ابتسموا حينَ يأتي الضيوف، لا تتحدّثوا أثناء الطعام!

كانتْ أوامرها صارمة، لا تقبل الجدل، ومَن يجرؤ على مخالفتها، يعرف أنّ العقوبة ستكون قاسية.

لكن ما كان يُحزن يوسف أكثر من أي شيء، هو أنّها لم تكن تناديهم بأسمائهم؛ إذ كانت تُناديهم بالأرقام.

الولد رقم 14، تعال إلى هنا.

الفتاة رقم 7، نظفي المطبخ.

وكأنّهم ليسوا بشرًا! مجرّد أرقام في سجل قديم، يمكن استبدالهم في أيّة لحظة.

كان هذا أسوأ من أيّ عقاب، أن يشعر الإنسان بأنّهُ لا يملك حتّى اسمه!

كانت المديرة تسير بينَ الغُرف والممرّات، تُراقب كل شيءٍ بعينِ الصقر، تبحث عن أيّة تفصيلة قد تُعطي انطباعًا سيئًا للزوّار.

كان يوسف جالسًا في زاوية غرفته، يُراقب الحركة من بعيد، يعلم أنّ كُلّ هذا مجرّد تمثيليّة كبيرة.

اليوم سيأكل الأطفال طعامًا لذيذًا لم يتذوقوهُ مُنذُ شهور، سيرتدونَ ملابس نظيفة لم يعتادوا عليها، وسيحصلون على هدايا ستُسحب منهم بعد مغادرة الزوّار.

لكنّهُ لم يكن مثلهم، لم يكن ينتظر أيّ شيء من هذا اليوم.

في أيّام الزيارات، كانت السيّارات الفاخرة تتوقف أمام بوابة الدار الكبيرة، ويخرج منها رجال ونساء يرتدون نظارات سوداء، يمسكون

بهواتفهم، وكأنّهم هنا فقط لالتقاط الصور، لا لرؤية هؤلاء الأطفال حقًا.

حينَ دخلوا، اصطف الأطفال في طابورٍ طويلٍ عند المدخل، وجوههم مضاءة بحماسٍ زائف.

بدأ أحد الرجال بالتحدّث بصوتٍ عالٍ، وكأنّهُ يقرأ نصًّا حفظهُ جيّدًا:

نحنُ هنا اليوم لأنّنا نؤمن بأهميّة دعم هؤلاء الأطفال، كل طفل هنا يستحقّ الحُبّ والرعاية، ونحن نبذل ما بوسعنا لنمنحهم ذلك.

صفّقَ الزوّار بحرارة، وكأنّ الكلمات صنعت فرقًا حقيقيًّا!

بعد لحظات، بدأت الهدايا تتوزع، أكياس ممتلئة بالملابس، صناديق ألعاب، عُلب حلوى مُغطاة بشريط ذهبي.

الأطفال اندفعوا للأمام، أيديهم تمتد بنَهم، أصواتهم تختلط بضحكات الزوّار المُصطنعة.

في الزاوية، يوسف يُراقب المشهد بصمت، لم يتحرّك، لم يُحاول أن يمدّ يدهُ نحو أيّ شيء.

كان يعرف أنّ هذهِ الهدايا ليستْ لهم حقًا، يعلم أنّها ستُجمع في نهاية اليوم، وستُخزن في المستودع المُغلق، ليُعاد توزيعها على مجموعة جديدة من الزوّار في الزيارة القادمة.

بعد دقائق، لاحظت إحدى السيّدات أنّ يوسف لم يُشاركهم الإحتفال، كانت ترتدي فستانًا أزرقًا لامعًا، في يدها حقيبة يد فاخرة، وعلى وجهها تعبير يُشبه الشفقة، لكنّهُ لم يكن حقيقيًا.

اقتربت منهُ وجلست على ركبتيها، حتّى أصبحت في مستوى نظره: لماذا لا تلعب مع الآخرين؟

لم يردّ يوسف، فقط نظر إليها بعينينِ فارغتين.

تابعت: هل تُريد لُعبة؟

أيّة واحدة تُعجبك؟

قالتها وهي ترفع دُمية من بين الهدايا.

هزّ رأسه بالنفي، لم يكن يهتم بالألعاب.

بدت السيّدة مُتفاجئة، رُّبما لأنّها اعتادت أن ترى الأطفال يلهثونَ خلف أيّ شيء يُقدَّم لهم، لكنّها لم تفهم أنّ يوسف لم يكن يبحث عن لُعبة.

كانَ يبحث عن شيءٍ آخر تمامًا.

حينَ لم تجد ردًّا منه، ابتسمت ابتسامة صغيرة، مسحت على رأسهِ بلُطف، ثُمَّ نهضت وعادت إلى حيثُ كان الزوّار يضحكون ويتحدّثون.

في تلكَ اللحظة، شعر يوسف بشيءٍ غريب، لم يكن حزنًا فقط، بل كان غضبًا هادئًا، إحساسًا مريرًا بالعجز، وبأنّهُ مجرّد مشهد إضافي في هذا العرض الكبير.

حينَ انتهى اليوم وانصرف الزوّار، كان الأطفال لا يزالون يحملون ألعابهم، لكنّ المديرة كانت قد بدأت بجمعها بالفعل، إذ قالت بصرامة: ضعوا كُلّ شيءٍ هنا، سنُرتبها لاحقًا.

اعترض أحد الأطفال، وهو يتمسك بسيّارة بلاستيكيّة صغيرة: لكنّها هديّتي!

نظرت إليهِ نظرة باردة وتابعت: لا شيء هنا ملكٌ لك، هيّا، ضعها في الصندوق.

انحنى الطفل ببطء، ووضع لُعبتهُ في الصندوق بحزن، ثُمَّ انسحبَ إلى غرفته.

وقفَ يوسف يُراقب المشهد، ثُمَّ ابتسم ابتسامة ساخرة؛ لأنّهُ يعرف ذلكَ مُنذُ البداية.

في تلكَ الليلة، عندما نامَ الجميع، خرج يوسف من غُرفتهِ بهدوء، سار في الممرّات المُظلمة، حتّى وصل إلى باب المكتبة الصغيرة في نهاية الرواق.

فتحهُ بحذر، ثُمَّ دخل إلى الغرفة الضيّقة؛ حيثُ تراكمت الكتب القديمة فوق الرفوف المهترئة.

جلسَ على الأرض، مدّ يدهُ إلى أقرب كتاب، فتح صفحاته التي تفوح منها رائحة الورق العتيق، وبدأ بالقراءة.

لم يكن بحاجةٍ إلى ألعاب، لم يكن بحاجةٍ إلى هدايا مؤقتة.

كان بحاجةٍ إلى عالم يستطيع أن يهرب إليه، حتّى لو كان بينَ سطور كتاب قديم.

رُّبما لم يتغيّر شيء في الدار، لكنّ شيئًا بدأ ينضج بداخلهِ.

بدأ يُدرك أنّ هذا المكان لن يمنحهُ شيئًا حقيقيًا، وأنّ إنقاذ نفسه لا يُمكن أن يأتي من الخارج.

لكن في الوقت ذاته، لم يكن يعرف بعد كيفَ سيخرج من هذهِ الدوّامة؟

كل ما كان يعرفهُ في تلك اللحظة هو أنّهُ لم يعد طفلًا ينتظر الهدايا، كان شيئًا آخر، شيئًا لم يفهمهُ بعد.

ظلَّ يتذكّر تفاصيل الليلة التي وصلت فيها (ليلى) رفيقهُ الوحيد، وأيّامهما معًا.

في إحدى الأيّام الباردة، حينَ كانت السّماء مُلبّدة بالغيوم الرماديّة، وقفت سيّارة شرطة قديمة أمام دار الأيتام.

كانت الإطارات مُغطاة بالطين، وصوت المُحرّك يرتجف كما لو كان يحتضر، فتح أحد الضُباط الباب الخلفي بحذر، وأخرج منها صغيرة

ملفوفة ببطانيّة بيضاء قديمة، وجهها الصغير شاحب، بالكاد تتنّفس.

وقف عند مدخل الدار، وطرق الباب الحديدي بصوتٍ عالٍ، فتحَ الحارس العجوز الباب بنظرة مُتجهمة، ثُمَّ نظر إلى الطفلة التي في يديه.

وجدناها أمام المسجد، لا نعرف مَن تركها هناك، رُّبما عمرها بضعة أيّام فقط.

تنّهد الحارس كما لو أنّهُ سمع هذهِ القصة من قبل مئات المرّات، ثُمَّ أشار لهُ بالدخول.

عندها، سُجّل اسم جديد في قائمة الأسماء المنسيّة في دار الأيتام (ليلى).

كبرت ليلى بينَ جدران الدار كما كبر الجميع، كانتْ فتاة مرِحة بيضاء الوجه، عيناها واسعتان وبُنيّة اللون، بها شيء مختلف عن الأطفال الآخرين، لم تكن تبكي كثيرًا، ولم تكن تستسلم بسهولة للأوامر الصارمة للأمهات البديلات، كانت تضحك كثيرًا، رغم أنّ حياتها لم تمنحها سببًا واحدًا للضحك.

حينَ تعلّمت المشي، كانتْ تركض في الممرّات الضيّقة، تصطدم بالكراسي، وتقفز على الأسرّة، ممّا جعل الأمهات البديلات يصرخنَ باسمها كُلّ يوم: ليلى، توقفي عن الجري، ليلى، لا تلمسي هذا.

لكنّها لم تكن تتوقف أبدًا.

وفي عمر الخامسة، أصبحت أقرب شخص إلى يوسف.

في أحد الأيّام، بينما كان يوسف جالسًا في زاوية الغرفة المشتركة، رأسهُ منخفض وعيناهُ مثبتتانِ على الأرض، جاءت ليلى وجلسَت بجانبه.

لماذا تجلس وحدك؟

سألتهُ بصوتها الطفولي.

لم يردّ، كان يعرف أنّ الأطفال الآخرين لا يتحدّثونَ إليه كثيرًا، فلماذا تكون هذهِ الطفلة مختلفة؟

تابعت: هل أنت غاضب؟

ظلّ صامتًا.

عندها، مدّت يدها إليه، ووضعت أمامهُ قطعة خُبزٍ صغيرة كانت تخبئها في جيبها.

رفع رأسهُ ونظر إليها بتردد، ثُمَّ إلى الخبز.

تناولها، هي لك!

قالتها ببساطة.

ظلّ يُحدّق فيها، لم يمنحهُ أحد شيئًا من قبل، في الدار كان الجميع يتنافسون على أيّة لقمة إضافيّة، لكنّ هذهِ الطفلة الصغيرة أعطتهُ خبزها دونَ أن تطلب شيئًا في المقابل.

منذُ ذلكَ اليوم، أصبحا لا يفترقان.

لم تكن أختهُ لكنّها لم تكن مجرّد صديقة أيضًا، كانت هي الشيء الوحيد الذي ينفي شعورهُ بالوحدة في هذا العالم.

في الليالي الباردة، حينَ كان يُعاقب يوسف بالحبس في غرفة منفردة بسبب أخطائه الصغيرة، كانت ليلى تجلس بجانب الباب من الخارج، تهمس لهُ عبر الفجوة بينَ الخشب والمعدن: أنا هنا، لا تقلق.

كانت تأتيه بكسراتٍ من الخبز، تسرب إليهِ الماء في كوب بلاستيكي

قديم، وأحيانًا كانت تحكي لهُ قصصًا غريبة لم يكن يعرف من أين تأتي بها.

هل تعلمين أنّكِ أوّل شخص يُعاملني بلطف؟

قال لها ذات يوم.

ضحكت، وقالت: لأنّني ذكيّة، أعرف أنّ يوسف ليسَ سيئًا كما يقولون.

تلكَ الجملة لم ينساها أبدًا.

كانت ليلى تحلم دائمًا بالخروج من الدار.. أنا سأعيش في بيتٍ كبير، وسأحصل على سرير ناعم مثل الغيوم!

كانت تقول بحماس: وسأذهب إلى المدرسة، وسأتفوّق على الجميع.

يستمع إليها يوسف بصمت، لأنّهُ يعرف أنّ الأحلام في دار الأيتام لا تتحقق.

لكنّهُ لم يكن يُريد أن يكسر أملها.

هل ستأخذينني معكِ إذا وجدتِ بيتًا؟

سألها ذات يوم، بصوتٍ منخفض.

نظرت إليهِ بجديّة، ثُمَّ ابتسمت وقالت: نعم بكُلِّ تأكيد، فأنا لا أُريد أن أعيش هُناكَ بمفردي.

لكنّها لم تكن تعلم أنّ الأقدار لن تمنحها الفرصة لتنفيذ وعدها.

في أحد أيّام الزيارات والمناسبات، وجدت ليلى باقة وردٍ مُلقاة في الممرّ، جذبتها الألوان الزاهية، فمدّت يدها لتلتقط وردة منها، وما إن أمسكتها حتّى وخزها شوكها الحاد، فانسكبت قطرات الدّم على البلاط.

رأى يوسف المشهد، فارتجفَ من الرعب والخوف عليها، وركض مُسرعًا إلى الأمّ البديلة ليُخبرها، عسى أن تنقذ ليلى.

قضى ليلتهُ باكيًا، تتقلب في صدره المخاوف والندم.

وفي اليوم التالي، حينَ رآها تضحك وكأنّ شيئًا لم يكن، انشرح صدره واطمأن قلبه.

في أحد الأيّام جاءت عائلة أنيقة إلى الدار، رجل وامرأة يُمسكان بأيدي بعضهما بإحكام، كما لو كانا خائفين من اتخاذ قرار مصيري.

تحدّثوا مع المديرة، نظروا إلى الأطفال، ثُمَّ توقفوا عند ليلى.

إنّها رائعة ونشيطة.

قالتها المديرة بابتسامة مُصطنعة.

لم يكن هُناكَ داعٍ للكثير من التفكير.

سنأخذها .

حينَ علمت ليلى بالأمر، لم تعرف كيف تشعر.

كانتْ تعرف أنّ هذا قد يكون اليوم الذي انتظرتهُ طويلًا، لكن هناك شيء واحد كان يجعلها مترددة.. يوسف.

في صباح اليوم التالي، حملت حقيبة صغيرة بها ملابس جديدة حصلت عليها خصيصًا لهذهِ المناسبة، وقفت أمام الباب، يملأ الحزن عيناها.

كان يوسف واقفًا أمامها، لكنّهُ لم يتحدّث.

قالت بصوتٍ مُرتجف: سأذهب يا يوسف.

ظلّ صامتًا، يُحدّق في الحقيبة الصغيرة، كما لو أنّها كانت تحمل كل شيء يملكهُ في هذا العالم.

اقتربت منه، أمسكت بيده، وضغطت عليها برفق، ثُمَّ تابعت:وسأعود إليك، أعدك أنّنا سنلتقي مرّة أُخرى.

لكنّهُ كان يعرف الحقيقة، لا أحد يعود بعد أن يترك الدار.

لم يقل شيئًا، لم يكن هناك شيء ليُقال.

راقبها وهي تسير مع العائلة الجديدة، خطواتها مترددة، رأسها يتحرّك وكأنّها تبحث عنهُ في كل زاوية من الدار!

وحين وصلت إلى الباب، استدارت للمرّة الأخيرة، أرادت أن تقول شيئًا، لكنّهُ لم يكن هناك.

كان قد ذهب بالفعل، لأنّهُ لم يكن يُريد أن يرى اللحظة التي تخرج فيها من حياتهِ وإلى الأبد.

بعد اختفاء ليلى، لم يعد شيء كما كان.

لم يعد يوسف يأكل كما كان في السابق، لم يعد يتحدّث كثيرًا، حتّى الأمهات البديلات لاحظنَ أنّهُ لم يعد يتسبب في المشاكل كما كان يفعل دائمًا.

لكنّهُ لم يكن قد أصبحَ طفلًا جيّدًا، كان قد بدأ يختفي داخله.

في كل ليلة، كان ينام وهو يتخيّل أنّ ليلى لم ترحل، إنّها لا تزال هناك، إنّها ستظهر من أحد الممرّات وتُلقي إليهِ قطعة خبز كما تفعل دائمًا.

لكنّ الحقيقة كانت مختلفة.

ليلى لم تعد هنا، وهو للمرّة الأولى شعر أنّ الوحدة يُمكن أن تقتل.

بعد رحيل ليلى، تغيّرَ كُلّ شيءٍ بالنسبةِ ليوسف.

لم يعد هُناكَ مَن يسرق لهُ بقايا الخبز حينَ يُحبس، لم يعد هناك مَن يُشاركهُ حكايات الليل. شعر وكأنّ جزءًا منهُ قد اختُطف منهُ فجأة، ولم يكن هُناكَ ما يُمكنهُ فعله لاسترجاعه.

حاول في البداية أن يقنع نفسه بأنّها ستعود، لكنّها لم تفعل.

مرّت الأيّام والأسابيع، ثُمَّ الأشهُر، ولم يصل أيّ خبر عنها.

في كل ليلة، كان ينام وهو يتخيّل أنّها ما زالت هنا، جالسة بجواره، تهمس لهُ بحكاية جديدة، تضحك على أشياء لم يجدها غيرهما مضحكة.

لكنّ الحقيقة كانت مختلفة؛ ليلى لم تعد هنا.

وفي غيابها، لم يكن أمامهُ سوى الورق ليبوح لهُ بما لم يستطع قولهُ لها.

الرسالة الأولى – بعد رحيلها بأسبوع

(ليلى)، استيقظتُ اليوم ولم أجدكِ، أعرف أنّكِ غادرتِ منذُ أسبوع، لكنّ الأمر يبدو غريبًا، كأنّكِ كنتِ هنا بالأمس فقط!

في الحقيقة، لا أُصدق أنّكِ لن تعودي، ما زلتُ أبحث عنكِ بينَ الأطفال، كأنّني سأجدكِ جالسة في الزاوية، تضحكينَ من شيءٍ سخيفٍ كما كنتِ تفعلينَ دائمًا.

اليوم أيضًا جاء زائرون جُدد، وزّعوا ألعابًا، لكنّني لم ألمس أيًّا منها، كنتِ تعرفينَ أنّي لا أُحبُّ الألعاب، لكنّكِ كنتِ تجبرينني على اللعب بها على أيّة حال، كنتِ تقولين إنّ الحياة أقصر من أن نعيشها دونَ أن نضحك، لكنّني لا أشعر بذلك الآن.

المديرة صارت أسوأ، رُّبما لأنّها تعرف أنّكِ لن تعودي لتحميني، اليوم صرخت في وجهي فقط لأنّني تأخرتُ في ترتيب سريري.

كنتِ دائمًا تساعدينني في هذا، والآن أشعر بأنّني لا أُريد ترتيبهُ أبدًا.

ليلى، هل تتذكّرينَ الليالي التي كنّا نجلس فيها مُتقابلين، نتهامس عن المستقبل؟

كنتِ تقولينَ إنّكِ ستعيشينَ في بيتٍ كبير، وستحصلينَ على قطّة صغيرة، وستذهبينَ إلى المدرسة كُلّ يوم بثيابٍ جديدة، هل حصلتِ على كُلّ ذلك؟

هل أصبحتِ سعيدة؟

أنا فقط أُريد أن أعرف، هل تفتقدينني كما أفتقدكِ؟

اشتدت الوحدة علي يوسف فقرر أن يكتب رسالة إلى ليلى.

الرسالة الثانية – بعد مرور شهرين

(ليلى)، مرّ شهران الآن، لكنّ الأيّام تبدو كما هي، لا شيء يتغيّر هنا، نفس الوجبات، نفس الجدران، نفس العقوبات، نفس الألم، ولكن هناك شيءٌ جديد، لقد بدأتُ أنسى صوتكِ، أكرهُ ذلك، لكن مهما حاولتُ أن أتذكّر كيفَ كنتِ تضحكين، لا أستطيع، كأنّكِ تتحوّلينَ إلى صورةٍ باهتة في رأسي، وكلّما حاولتُ الإمساك بكِ، تهربينَ أكثر.

أتساءل أحيانًا، هل تتذكرينني؟

هل ما زلتِ تفكرين في الأيّام التي قضيناها معًا؟

أم أنّ عائلتكِ الجديدة جعلتكِ تنسينَ كل شيء؟

أحيانًا أغضب، ليسَ منكِ، بل من الحياة التي قررت أن تأخذكِ منّي، لماذا حصلتِ أنتِ على فرصة جديدة بينما بقيتُ هنا؟

لماذا لم تأخذيني معكِ؟

لكن لا تقلقي، لا أُريدكِ أن تشعري بالسوء، أنا فقط أشتاقُ إليكِ، وهذا كل شيء.

الرسالة الثالثة - بعد ستة أشهر

(ليلى)، لقد مرّت ستة أشهُر الآن، وأنا لم أعد أكتب لكِ كما كنت أفعل من قبل، رُّبما لأنّني بدأت أعتاد على غيابكِ، أو رُّبما لأنّني بدأت أشعر أن لا فائدة من الكتابة لمَن لا يقرأ.

لكنّ اليوم، وجدتُ شيئًا جعلكِ تعودي إلى ذاكرتي بقوة؛ كنتُ في المكتبة الصغيرة عندما وجدتُ كتابًا قديمًا عن فتاةٍ تشبهكِ كثيرًا.

كانت مشاكسة، لكنّها طيّبة، ولديها أحلام كبيرة، تذكرتكِ فورًا، وكأنّكِ كنتِ هنا معي، تقرئينهُ بصوتكِ الحماسي كما كنتِ تفعلين.

في تلكَ اللحظة، أردتُ أن أكتب لكِ مجددًا، أردتُ أن أخبركِ أنّني لم أنسكِ، وأنّني ما زلتُ أبحث عنكِ في كل شيء حولي.

لكنْني أيضًا بدأت أفكر، ماذا لو كنتِ سعيدة هناك؟

ماذا لو كنتِ قد وجدتِ ما كنتِ تبحثينَ عنه؟ في هذهِ الحالة، رُّبما يكون من الأفضل أن لا أزعجكِ بذكرياتي.

ليلى، إن كنتِ سعيدة، فلا تعودي، لا تبحثي عنّي، أريدكِ أن تعيشي حياتكِ كما كنتِ تحلمين، حتّى لو كان ذلك يعني أنّني لن أراكِ مجددًا.

لكن إن لم تكوني سعيدة فأرجوكِ لا تنسيني.

الرسالة الرابعة _بعد سنة

(ليلى)، لم أعد أكتب لكِ مُنذُ فترة طويلة، لقد أصبحتُ شخصًا مختلفًا، لم أعد ذلكَ الطفل الذي كنتِ تعرفينه، لم أعد أبكي كل ليلة، لم أعد أنتظر أحدًا.

لقد تعلّمتُ أنّ الحياة لا تمنحنا كل ما نُريد، وأنّ الأشخاص الذين نُحبّهم قد يرحلونَ دونَ عودة.

لكن رغم ذلك، من أعماقي ما زلتُ أتمنّى أن يأتي يوم أفتح فيهِ هذا الباب فأجدكِ واقفة هناك، تبتسمينَ لي كما كنتِ تفعلينَ دومًا، لكنّني أعلم أنّ هذا لن يحدث، لذا أكتبُ إليكِ رسالتي الأخيرة، ليسَ لأنّني نسيتكِ، ولكن لأنّني أخيرًا قررتُ أن أتوقف عن انتظاركِ،

وأيضًا لتعلمي أنّني لا أُسامح تلكَ العائله التي أبعدتكِ عنّي، لن أُسامحهم أبدًا.

وداعًا يا ليلى، أتمنّى أن تكوني بخيرٍ أينما كنتِ.

بعد أن انتهى يوسف من كتابة الرسالة الأخيرة، جلس على حافّة سريره، ينظر إلى الأوراق التي تراكمت على مرّ الشهور.

شعر بشيء ثقيل في صدره، لكنّهُ كان مختلفًا هذهِ المرّة، لم يكن ألم الفقدان فقط، بل كان أيضًا نوعًا من التحرُّر.

لقد أدركَ أخيرًا أنّ الحياة لا تنتظر أحدًا، وأنّهُ يجب عليهِ أن يجد طريقهُ بنفسه، حتّى لو لم يجد مَن يُشاركهُ الطريق.

لكن رغم كل ذلك، كان يعرف أنّ هناك جزءًا منهُ سيظلّ دائمًا يبحث عنها، حتّى لو لم يعترف بذلك لنفسه.

(الليلة التي اكتشف فيها يوسف الحقيقة)

في إحدى الليالي، بينما كان الجميع نائمين، استيقظ يوسف على صوت طقطقة خفيفة.

فتح عينيهِ ببطء، شعر بالبرد يزحف إلى جسده، كان هناك شيء غير مألوف في الهواء.

نظر حوله، لم يكن هناك أحد مستيقظًا، لكن حينَ حدّقَ في الممرّ المُظلم، لاحظَ أنّ باب المستودع الكبير كان مفتوحًا قليلًا.

لم يكن هذا الباب يُفتح أبدًا، كان مغلقًا دائمًا، وكان الأطفال يعرفون أنّهُ المكان الذي تُخزن فيهِ بعض الأغراض، لكن لم يُسمح لأحد بالدخول إليه.

لكن هذهِ الليلة، كان الباب مفتوحًا.

تسلل يوسف من سريره، مشى بحذرٍ على أطراف أصابعه، قلبه ينبض بسرعة.

حينَ وصل إلى الباب، دفعهُ ببطء، ودخل إلى المستودع المُظلم.

ما رآه هناك جعلهُ يتجمّد في مكانه، المخزن السرّي؛ حيثُ تُدفن أحلام الأطفال، كان المكان مليئًا بصناديق ضخمة، بعضها مفتوح، والبعض الآخر مغلق بإحكام.

في أحد الصناديق، رأى ألعابًا جديدة، سيّارات، دُمى، مكعبات بناء، كل الأشياء التي لم يحصل عليها أيّ طفلٍ في الدار.

في صندوق آخر، كانت هناك ملابس جديدة، بعضها لا يزال يحمل البطاقات السعريّة، نظيفة ومرتبة بعناية.

وفي زاويةٍ أُخرى، كانت هناك أكياس كبيرة من الطعام، أرز، سكر، مُعلّبات، وحتّى فواكه طازجة!

لم يكن يستطيع تصديق ما يراه.

كل هذهِ الأشياء كانت مخبأة؟

تذكّر الأيّام التي نام فيها وهو جائع، الأيّام التي جلس فيها في الزاوية يرتدي قميصًا مُمزقًا؛ لعدم وجود بديل!

كل هذا كان هنا طوال الوقت ولم يُعطَ لهم أبدًا؟

شعر بغضبٍ شديد، كم مرّة تبرع النّاس بأشياءٍ لهم، وكم مرّة شكرهم الجميع، بينما كانت المُديرة تُخفي كل شيء لنفسها؟

لكن قبل أن يستوعب صدمته، سمع صوتًا خلفه، صوت خطواتٍ هادئة، ثُمَّ وقفت المديرة عند الباب.

(لحظة المواجهة، بداية السقوط)

تجمّدَ يوسف في مكانه، شعر بأنّ الهواء أصبح أثقل، وكأنّ الغرفة الصغيرة قد تقلصت فجأة.

ماذا تفعل هنا؟

لم يكن صوتها مرتفعًا، لكنّها لم تكن بحاجةٍ إلى الصراخ، نبرتها الباردة كانت أكثر رعبًا من أيّ صراخ!

أراد يوسف أن يهرب، أن يختلق عذرًا، لكن لم يكن هناك جدوى، لقد رأت كل شيء.

حاول أن يتكلّم، لكن صوتهُ لم يخرج.

تعال معي.

كانت هذهِ الكلمات كافية ليشعر بالرعب الحقيقي.

اقتادتهُ المديرة إلى غرفة صغيرة في نهاية الدار، غرفة لم يكن يذهب إليها أيّ طفلٍ إلّا عندما ينتظر عقابًا قاسيًا.

حينَ دخل، لاحظ أنّ الغرفة لم تكن تحوي إلّا سريرًا صغيرًا، بدون غطاء، ونافذة مغلقة بالحديد، والجدران كانت رماديّة كئيبة.

ستبقى هنا حتّى تتعلّم الدرس.

وقبل أن يردّ يوسف أغلقت الباب بالمفتاح، ثُمَّ ابتعدت، تاركة إيّاهُ وحيدًا في الظلام.

(العزلة وكيف يُكسر الإنسان؟)

في البداية، ظنّ يوسف أنّ الأمر مجرّد عقوبة قصيرة، ساعات قليلة وسيفتحون لهُ الباب.

لكن مرّت الساعات ثُمَّ الأيّام، لم يكن هناك سرير مريح، لم يكن هناك سوى الأرضيّة الباردة.

لم يكن هناك ضوء، فقط عتمة ثقيلة، تجعل الليل والنهار متشابهان.

كانوا يعطونهُ قطعة خبز صغيرة وكوب ماء كل يوم، لكنّهُ كان قليلًا جدًّا.

في اليوم الأول، كان يصرخ، يطرق الباب، يطالب بالخروج.

في اليوم الثاني، لم يعد يصرخ، فقط جلس في الزاوية، عيناهُ فارغتان،

يشعر بأنّ جسدهُ لم يعد ملكًا له.

في اليوم الثالث، بدأ يفقد الإحساس بالوقت.

كان يشعر وكأنّ العالم كُلّهُ قد نَسِيَهُ.

لم يكن هناك أحد، لم تكن هناك (ليلى) تهمس لهُ من خلف الباب، لم يكن هناك مَن يُعطيهِ كسرة خبز سرًّا، كان وحدهُ تمامًا.

وفي تلك اللحظة، أدركَ شيئًا مرعبًا؛ إذا لم يخرج من هنا قريبًا، فقد لا يخرج أبدًا.

(الخروج، لكن بثمن)

في الليلة الثالثة، فُتِحَ الباب أخيرًا.

دخلت المديرة، نظرت إليهِ ببرود، وكأنّهُ لم يكن أكثر من قطعة أثاث قديمة.

تعلّمتَ الدرس؟

نظر إليها، عيناهُ غائمتان، جسده ضعيف، لكنّهُ لم يُجب.

فقط نهض، وخرج من الغرفة ببطء.

حينَ مرّ بجانبها، لم ينظر إليها، لكنّهُ كان يعرف شيئًا واحدًا،

لن يُسامحها أبدًا.

لم يعد يوسف كما كان من قبل.

لم يعد الطفل الذي كان يحلم بأنّ المديرة قد تتغيّر، أو بأنّ الحياة في الدار قد تتحسّن.

بدأ يتحدّث أقل، يبتسم أقل، وأصبح ينظر إلى العالم بنظرةٍ باردة، تُشبه نظرة المديرة نفسها.

لكن في داخله، كان هناك قرار قد اتخذه،

لن يبقى هنا إلى الأبد.

سيجد طريقًا للخروج، مهما كلّفهُ الأمر.

((يوسف والتمّرُد بعد العزلة (ولادة شخصٍ جديد))

عندما خرج يوسف من غرفة العقاب، لم يكن نفس الطفل الذي دخلها.

كان جسده ضعيفًا، لكنّ شيئًا ما قد تغيّرَ بداخله.

في الماضي، كان يخاف من المديرة، يخاف من العقاب، يخاف من التحدّث أو حتّى النظر في عينيها، لكنّهُ الآن لم يعد يشعر بشيء على الإطلاق.

لم يكن هناك غضب واضح، لم يكن هناك دموع، فقط برود قاسٍ كأنّهُ رجل عجوز سُلبت منهُ أحلامه قبل الأوان!

كان الأطفال الآخرون يُحدّقون فيهِ عندما عاد إلى الغرفة المشتركة، بعضهم شعر بالشفقة، والبعض الآخر بالرهبة، لكن يوسف لم يكن يهتم بأيٍّ منهم.

اتجه إلى زاويته المعتادة، جلس على سريره، وحدّق في الجدار الرمادي لفترةٍ طويلة.

في تلكَ اللحظة، اتخذ قرارًا، لن يكون عبدًا لهذهِ الدار بعد الآن.

إذا كان هناك شيء واحد تعلّمه من الأيّام التي قضاها في العزلة، فهو أنّ الحياة داخل هذهِ الجدران لن تتحسّن أبدًا.

يجب أن يهرب.

لكن الهرب من دار الأيتام لم يكن سهلاً، فالمديرة كانت تراقب كل شيء، والمبنى محاط بأسوار عالية، والبوابات مغلقة بإحكامٍ ليلَ نهار.

لكن يوسف لم يكن ليقبل المستحيل كإجابة.

(البحث عن فرصة للهرب)

بدأ يوسف في مراقبة كل شيء حوله.

كان يراقب حركة العُمّال، متى يفتحون الأبواب، متى يغلقونها، مَن يملك المفاتيح، وأيّ الأوقات يكون فيها المكان أكثر هدوءًا.

لاحظ أنّ هناك بوابة جانبيّة تُفتح في الصباح الباكر عندما يأتي مورّدو الطعام.

كانتْ هذهِ هي فرصتهُ الوحيدة.

لكنّ المشكلة هي أنّ البوابة مغلقة بإحكام، وهناك حارس يقف بجانبها طوال الوقت.

كيفَ يُمكنهُ أن يخرج دونَ أن يُلاحظهُ أحد؟

كان بحاجةٍ إلى خُطّة.

قبل أن يتمكن من الهرب، كان عليه أن يختبر شيئًا، كيف ستكون ردة فعل المديرة إن تحداها علنًا؟

في صباح أحد الأيّام، وبينما كان الأطفال يجلسون في قاعة الطعام، وقفت المديرة في مقدمة الغرفة تتحدّث إليهم عن (شرف العيش في الدار)، وعن وجوب امتنانهم لها.

يوسف، الذي لم يكن يتحدّث أبدًا، رفع صوتهُ فجأة وقال: ممتنين؟

لأيّ شيء؟

للجوع؟

للملابس المُمّزقة؟ أم للغرفة المظلمة التي تحبسينا فيها؟

ساد صمت ثقيل في القاعة.

لم يتحدّث أحد بهذا الشكل من قبل.

المديرة، التي لم يكن أحد يجرؤ على تحديها علنًا، حدّقت فيهِ بعينيها الرماديتين الباردتين: ماذا قلت؟

وقف يوسف، رفع رأسه، ونظر إليها مباشرة، دونَ خوف: أنتِ لستِ أُمًّا لنا، أنتِ لا تهتمين لأمرنا، كل ما تفعلينهُ هو أن تُخيفينا.

كان يمكن لأيّ شخص أن يسمع صوت أنفاس الأطفال من حوله.

لم يكن هناك شيء أكثر خطورة من تحدّي المديرة علنًا.

لكنّ يوسف لم يكن يهتم بعد الآن.

هل تعتقد أنّك بطل؟

قالتها المديرة، صوتها هادئ لكنّهُ مشحون بالغضب.

أجابها: أنا فقط أقول الحقيقة.

لم يكن يوسف يتوقع أنّهُ سيخرج من هذهِ اللحظة دونَ عقاب، لكنّهُ لم يكن خائفًا، بل كان مستعدًا هذهِ المرّة.

لم يكن مفاجئًا أن يُؤخذ إلى مكتب المديرة بعد ذلك مباشرة.

جلست خلف مكتبها، نظرت إليهِ ببرود، وقالت:

أنت تلعب بالنار يا يوسف.

لم يردّ، فقط وقف هناك، ينتظر أن يرى ما ستفعله.

إن كنت تظنّ أنّكَ تستطيع أن تتحداني، فأنت مُخطئ.

ثُمَّ أضافت بصوتٍ هادئ لكنّهُ مملوء بالتهديد:

العقاب هذهِ المرة سيكون مختلفًا.

أمرتهُ بالبقاء في المطبخ طوال اليوم لتنظيف الأواني، ولم يكن ذلك العقاب بحدّ ذاته هو المشكلة، لكن ما لاحظهُ أثناء وجوده في المطبخ هو ما جعلهُ يُدرك أنّ فرصتهُ قد حانت.

خلال فترة الغداء، كان أحد العُمّال يفتح البوابة الجانبيّة لإخراج القمامة.

لم يكن الحارس يقف هناك طوال الوقت، هذهِ كانت فرصته.

(ليلة الهرب)

في تلك الليلة، لم ينم يوسف، بل كان مُستلقيًا على سريره، عيناهُ مفتوحتان، قلبه ينبض بسرعة، يفكر في اللحظة التي سينفذ فيها خطّته.

عندما اقترب الفجر، تسلل من سريره بهدوء، وسار في الممرّات بحذرٍ شديد.

كل شيء كان صامتًا، لا أحد مستيقظ، إلّا بعض الأمهات البديلات اللاتي كُنّ يتحدّثن في غرفةٍ بعيدة.

وصل إلى المطبخ، اختبأ خلف الباب، وانتظر اللحظة المناسبة.

بعد دقائق، دخل أحد العُمّال لحمل القمامة، فتح البوابة الجانبيّة، وأخرج الأكياس الثقيلة، هذهِ هي اللحظة.

ركضَ يوسف بأقصى سرعة ممكنة، زحف تحت العربة، وتسلل عبر البوابة قبل أن يراهُ أحد.

وعندما استدار العامل ليعود، كانت البوابة قد أُغلقت، لكن يوسف كان قد أصبح في الخارج.

أوّل مرّة يرى فيها العالم الحقيقي بدون قيود!

وقف يوسف خارج الدار، يلهث، قلبه يكاد ينفجر من شدّة التوتر.

للمرّة الأولى في حياته، كان خارج الأسوار.

كان الشارع مظلمًا، لكنّهُ كان أوسع ممّا تخيّله.

هناك مبانٍ بعيدة، أضواء سيّارات، وضجيج منخفض في الخلفيّة.

وقف للحظة، شعر بشيء غريب، كان هذا هو العالم الذي حلم بهِ دائمًا.

لكنّهُ الآن لا يعرف إلى أين يذهب؟

كان يوسف يعلم أنّ المديرة ستدرك اختفاءه قريبًا، وستبحث عنه.

لكنّهُ كان قد قرر شيئًا واحدًا، لن يعود إلى الدار أبدًا مهما كلّفهُ الأمر.

العودة إلى القفص (لم تدم الحُرِيّة طويلًا)

حينَ خرج يوسف من بوابة الدار، شعر بأنّ الهواء مختلفًا، وكأنّهُ يتنّفس لأوّل مرّة.

لأوّل مرّة، لم يكن هناك أحد يُراقبه، لم يكن هناك أوامر أو عقوبات أو نظرات باردة، كان العالم أمامهُ مفتوحًا بلا حدود.

لكن، لم يكن يعرف إلى أين يذهب؟

مشى في الشوارع بلا هدف، يحدّق في الأضواء والمباني العالية التي لم يراها عن قرب من قبل، كان النّاس يسيرون بسرعة، يتحدّثون، يضحكون، يبدون وكأنّ لديهم مكانًا ينتمون إليه.

لكنّهُ كان وحده!

مرّت الساعات وهو يتجوّل بلا وجهة، لم يكن معهُ مال، لم يكن يعرف أحدًا، ولم يكن لديه مكانًا للنوم.

عندما بدأ الجوع يعتصر معدته، علم أنّ الحياة في الخارج ليستْ كما تخيّلها.

لكن رغم الجوع والتعب، كان هناك شيء واحد مؤكد كل هذا أفضل من العودة إلى الدار.

(القبض عليه والعودة إلى الجحيم)

لم تستمرّ حُريّتهُ طويلًا.

في صباح اليوم التالي، وبينما كان يجلس على الرصيف بجانب أحد المحال المُغلقة، سمع صوتًا مألوفًا جعل جسده يتجمّد: ها هو، هذا هو الطفل الهارب!

التفت ببطء، وقبل أن يتمكن من الركض، أمسك به رجلان ضخمان يرتديان زيّ الشرطة.

حاول المقاومة، حاول الصراخ، لكن لم يكن هناك فائدة.

دعوني، لن أعود!

لكن لم يكن لديهِ خيار.

قُيّدت يداه، ووُضع في سيارة الشرطة، وفي طريق العودة، كان ينظر

عبر النافذة إلى المدينة التي حلم بها، إلى العالم الذي بالكاد لمسه، ويدرك شيئًا قاسيًا أنّ الحلم قد انتهى.

عندما وصلت السيّارة إلى الدار، كانت المديرة واقفة عند البوابة، يداها متشابكتان أمامها، عيناها الباردتان تراقبانه بصمت.

لم تقل شيئًا حينَ أنزلوه من السيارة.

لكن نظرتها وحدها كانت كافية ليعرف أنّ العقاب القادم سيكون مختلفًا تمامًا.

(العقاب الجديد وتحطيم الرّوح)

أُخذ يوسف مباشرة إلى مكتب المديرة، أُجلس على الكرسي الخشبي القديم أمامها، وظلّ صامتًا، ينظر إلى الأرض، يعرف أنّ أيّة كلمة منهُ لن تُغيّرَ شيئًا.

كانت الغرفة مظلمة قليلًا، مصباح المكتب الوحيد يُلقي بظلالٍ باهتة على الجدران المليئة بالملفات القديمة.

ظلّت المديرة صامتة لدقائق طويلة، وكأنّها تستمتع بجعل التوتر يزداد.

ثُمَّ أخيرًا، تحدّثت: هل تظنّ أنّك ذكي؟

لم يُجب يوسف.

هل تظنّ أنّك تستطيع تحدّي النظام هنا؟

ظلّ صامتًا.

لقد ارتكبت أكبر خطأ في حياتك يا يوسف.

وقفت من مكانها، سارت حول المكتب ببطء، ثُمَّ انحنت قليلًا نحوه وهمست: من الآن فصاعدًا لن يكون لديك اسم هنا.

رفعت رأسها وأكملت بصوتٍ أكثر قسوة: لن تتناول الطعام مع الآخرين، لن تحصل على ملابس جديدة، لن تتلّقى أيّ تعليم، من الآن فصاعدًا، ستكون مجرّد ظلّ في هذا المكان. ستنظف الأرضيّات، ستغسل الأطباق، وستتعلّم أنّك لا شيء.

كان التهديد واضحًا، لم يكن العقاب هذهِ المرّة مجرّد حبس لبضعة أيّام، بل كانت تُريد كسره بالكامل.

مرّت الأيّام، وتحوّلت حياة يوسف إلى كابوسٍ دائم.

لم يعد ينام في غُرف الأطفال، بل في غرفة صغيرة خلف المطبخ، حيثُ تُخزن أدوات التنظيف، كانتْ هناك مرتبة قديمة على الأرض، ورائحة الرطوبة تملأ المكان.

كان يستيقظ قبل الجميع، يُجبر على تنظيف الحمّامات والممرّات، ثُمَّ يُعطى بقايا الطعام ليأكلها.

لم يعد مسموحًا لهُ باللعب، لم يعد يُسمح لهُ حتّى بالحديث مع بقيّة الأطفال.

كان شبحًا داخل الدار.

مرّت الأسابيع وهو على هذهِ الحال، وفي كل يوم، كان يشعر بأنّ جزءًا آخر منهُ يموت!

في البداية، كان يقاوم، كان ينظر إلى المديرة في عينيها كلّما مرّت بجواره، وكأنّهُ يخبرها: لن تهزميني.

لكن مع مرور الوقت، بدأ يشعر أنّ كل شيء يفقد معناه.

لم يعد يتحدّث، لم يعد يشعر بالغضب، لم يعد حتّى يحلم بالهرب.

كل ما كان يفعلهُ هو تنفيذ الأوامر، الأكل، النوم، ثُمَّ إعادة كل شيء في اليوم التالي.

تحوّلَ إلى آلة، تمامًا كما أرادت المديرة.

الرسالة الأخيرة إلى (ليلى) قبل أن يفقد نفسه تماماً.

في إحدى الليالي، وبينما كان جالسًا في الظلام داخل غرفته الصغيرة، شعر بحاجةٍ غريبة للكتابة.

أمسكَ ورقة قديمة وقلمًا مكسورًا وجدهُ في المطبخ، وبدأ يكتب: ليلى، لا أعرف لماذا أكتب لكِ الآن، رُّبما لأنّني أشعر أنّني لم أعد أنا، رُّبما لأنّني أحتاج إلى أن يتذكّرني أحد.

لقد عُدتُ إلى الدار، قبضوا عليّ بعد يومٍ واحد فقط من هروبي، والآن أنا في مكانٍ أسوأ ممّا كنت عليه من قبل.

المديرة جعلتني غير مرئي، لم أعد موجودًا،

لم أعد أتكلّم، لم أعد حتّى أفكر كثيرًا، كل يوم يمرّ وأنا أفقد جزءًا آخر منّي.

كنتِ تقولينَ لي دائمًا أنّ الحياة يجب أن نعيشها بكل ما فيها، لكن كيف أعيش شيئًا كهذا؟

ليلى، هل ما زلتِ تتذكرينني؟

أم أنّني أصبحتُ مجرّد ذكرى أخرى مثل هذهِ الدار؟

إن كنتِ سعيدة لا تعودي، لا تُفكري فيّ، لكن إن كنتِ تستطيعين، فقط تذكريني.

قرأ يوسف كلماته مرّة أخرى، ثُمَّ طوى الورقة، ووضعها تحت وسادته المهترئة، وكأنّهُ يخشى أن تمحوها الأيّام.

ثُمَّ أغمض عينيه، متمنيًا أن يستيقظَ في مكانٍ آخر.

بعد أن حكى يوسف حقيقته وتفاصيل ما حدث في دار الأيتام، وفي مكتب دكتورة نور بالمستشفى، ساعة غروب، النافذة مفتوحة قليلًا، يدخل منها نسيم خفيف يحمل رائحة شجر المستشفى، يوسف يجلس على الكرسي المقابل، بملامح أهدأ من أيّ وقتٍ مضى، بيده كوب شاي صغير، وأمامهُ ملفه الطبي مفتوح على الطاولة، دكتورة نور تبتسم لهُ ابتسامة هادئة.

يوسف، هل تعلم أنّ هذهِ قد تكون آخر جلساتنا هنا؟

يوسف بابتسامة خفيفة: أعلم، وقد لا أُصدق حتّى الآن.

دكتورة نور: ولمَ لا تُصدق؟

يوسف: لأنّني حينَ دخلت هذا المكان كنت أظنّهُ نهاية الطريق، لم أكن أظنّ أنّ أحدًا يخرج من هنا حقًا، إلّا محمولًا أو مكسورًا للأبد.

دكتورة نور تنظر إليهِ مطولًا: وأنت، كيف تخرج الآن؟

يوسف بعد صمت: لست مكسورًا ولست كاملًا،

لكنّني صرت أفهم ما بداخلي، وهذهِ معجزة بحدّ ذاتها.

دكتورة نور تفتح الملف، تُقلّب بعض الصفحات:

نوبات الهوس قلّت، حالات الاكتئاب أصبحت أقلّ حِدّة، واستجابتك للعلاج النفسي كانت مُمتازة.

لكنّ الأهمّ من كل هذا.. أنّكَ أصبحت تتكلّم.

يوسف: كنت أخاف من الكلام؛ لأنّني ظننت أنّ الكلام يجعلني أضعف.

لكنّني اكتشفت أنّ السكوت هو مَن كان يلتهمني من الداخل.

دكتورة نور تدوّن ملاحظة، ثُمَّ تنظر إليه: يوسف، هل لا تزال ترى ليلى؟

يوسف ينظر إلى يديه: لا، ليلي رحلت لكن بطريقةٍ غير مُخيفة، كأنّها فهمت أنّني لم أعد أحتاجها بنفس الطريقة.

هي لم تكن شّيطانًا، كانت حائطًا استندتُ عليه حينَ لم يكن هناك أحد.

دكتورة نور: وهل وجدت أحد الآن؟

يوسف يبتسم بخفة: رُّبما فيكِ، وفي جميع العاملين بالمستشفى، وحتّى في المرضى، وفي الورق الذي كتبت عليهِ أوجاعي دونَ أن يحكم عليّ.

صمت هادئ، ثُمَّ تتنّهد دكتورة نور، وتغلق الملف:

سأكتب التقرير، وسأوقّع على خروجك، مع توصية بالمتابعة الدوريّة، والالتزام بالعلاج.

لكن قبل أن تخرج، أُريد أن أسألك شيئًا بسيطًا وبصدق: هل تثق أنّكَ جاهز لمواجهة العالم؟

يوسف ينظر من النافذة، ثُمَّ يعود ببصرِهِ إليها:

العالم لم يتغيّر يا دكتورة، ولا أنا أصبحت خارقًا.

لكنّني تعلّمتُ شيئًا واحدًا.. أنّني لا أحتاج أن أكونَ سويًّا تمامًا لأعيش؛ يكفي أن أكون واعيًا بحقّي في الحياة.

دكتورة نور تبتسم وهي تضع الورقة الأخيرة في الملف: هذا جواب رجل خرج من العاصفة، ولم يفقد قلبه.

يوسف: بل رجل لا يزال يتعلّم كيف يستخدمه؟

ينهضان معًا، يسلّم يوسف على دكتورة نور، ويهمس قبل أن يخرج: شُكرًا لأنّكِ سمعتني حينَ لم أكن أعرف حتّى كيف أسمع نفسي.

في قاعة النشاط القديمة في المستشفى، حيثُ أُقيمت لهُ جلسة وداع بسيطة، الطاولات مرتبة بشكلٍ دائري، بعض البالونات الرمزيّة، كوب شاي على كُلّ طاولة، وبسكويت مُغلّف.

الجوّ هادئ، لكنّ القلوب ممتلئة بما لا يُقال، يوسف يجلس في المنتصف، مرتديًا سترة رماديّة لا تُشبه ثياب المستشفى.

ملامحهُ ساكنة، لكنّ عيناهُ تمتلئان بكل شيء دُفنَ بداخله.

الدكتورة نور تقف وتتكلّم أوّلًا، بنبرةٍ هادئة أقرب إلى الأُمومة منها إلى الرسميّة: يوسف، لم تكن مجرّد حالة في ملف، بل كنت درسًا لكل مَن دخل هذا المكان مُعتقدًا أنّهُ يعرف كل شيء عن المرض النفسي.

علّمتنا أنّ الصمت ليسَ ضعفًا، وأنّ الهرب أحيانًا طريقة للنجاة.

كنت صادقًا حتّى في جنونك.

تصمت، ثُمَّ تبتسم رغم أنّ عينيها تحمرّان، وتجلس.

المريضة نجلاء بصوتٍ مكسور: يوسف، أنت كنت المريض الوحيد الذي كنّا نشعر أنّهُ يستمع لنا ونحن نتحدّث معه، حتّى لو لم تكن تردّ وتشاركنا الحديث، كنت دائمًا تهزّ رأسك بإحساس، وتضحك بطريقة تجعلنا نشعر أنّنا لسنا وحدنا، أنا (تغالب دمعها)، أنا سأفتقدك فعلًا.

تبكي، ثُمَّ تخرج سريعًا حتّى لا تنهار أمامه.

العامل (عمّ زين)، العجوز الذي كان ينظف الطرقات ليلًا: يا بُنيّ، لم تكن تُدرك كيف كان شكلك حينَ دخلت أوّل مرّة؟

كنت تمشي وكأنّك تحمل جبلًا فوق ظهرك، ووجهك خالٍ من النور.

لكنّ الأيّام شغلتك، والنّاس اقتربوا منك، وفجأة، لاحَ النور فيك.

أمّا أنا فكنت أُراقبك من بعيد، لا أتكلّم، ولكنّني كنت أدعو لك.

واليوم أدعو لك أن تمضي قُدمًا، وأن تظلّ ثابتًا، مهما هزّتك الدُّنيا.

يقترب منهُ ويقبّل جبينه، ثُمَّ يعود إلى كرسيه باكيًا.

زميله حسام (من المرضى): لقد تعلّمت منك دونَ أن تُعلّمني.

كنت تهز كتفك حينَ أنسى دوائي وتقول لي: لا عذر لك.

ودائمًا ما كنت تردد: الظلام لا يُخيف، بل يُعلّمنا أن نمشي بحذر.

سأُخطئ بعدك بلا شك، لكنّ صوتك سيظلّ في أُذني.

يُخفض رأسه، ويبكي دونَ خجل، ويوسف ينظر إليهِ بقلب يكاد ينفجر.

يوسف بعد صمتٍ طويل: لست جيّدًا في كلمات الوداع، لكنّني لم أتخيّل يومًا أنّ أحدًا سيبكي لأجلي.

قديمًا، لم يكن أحد يسأل: أين أنا؟

أو إلى أين أذهب؟

أمّا الآن فأنا راحل، وأعلم أنّني سأترك قلوبًا، لا مجرّد مكان.

يحاول حبس دمعه، لكن دمعتين تسقطان بهدوء لا ضعف منه، بل امتنان.

دكتورة نور تقف، وتُمسك بيده:

اذهب يا يوسف وأثبت للعالم أنّ مَن يُشفى داخليًّا، يُصبح أقوى من أيّ عاصفة.

ينتهي اليوم بصمت، لا موسيقى، لا تصفيق، فقط وجوه دامعة وقلوب مليئة بالحُبّ، يلتفت يوسف مرّة أخيرة ثُمَّ يمشي نحو الباب حاملًا حقيبتهُ الصغيرة.

وقد رافقتهُ نجلاء إلى الباب، قالت وهي تُمسك بيده: لا تنسَنا يا يوسف، ضحكت، ثُمَّ مسحت دمعة سالت فجأة.

.كنتَ لنا العقل حينَ يغيب، والصوت حينَ يثقل علينا الكلام

يلتفت حولهُ فجأة، بعينين قلقَتين: وأين هي؟ لماذا لم تأتِ؟

نجلاء: مَن؟

قال وهو يترك الحقيبة جانبًا، يتقدّم خطوة كأنّ قلبهُ سبقَ جسده: أمّ سماح، السيّدة التي تعمل بالنظافة، أين ذهبت؟

كانت أوّل مَن يعلم برحيلي، مستحيل أن تغيب.

سادت لحظة صمت مربكة، نظرت نجلاء إلى باقي المرضى، ثُمَّ اقتربت: يوسف، مَن تقصد؟ مَن هي أمّ سماح؟

تجمّدَ في مكانه، شهق، كأنّ طعنة باغتت صدره.

لا، لا ، لا تقولي هذا، لا تمزحي.

عيناه تائهتان، يبحثان عن أيّ وجه مألوف يحمل الإجابة.

كنتِ تقفين معي حينَ كانت تمرّ وتُسلّم علينا، كانت تضحك معكِ!

كانت تناديني (ابنى) ألا تتذكرين ؟

هزّت نجلاء رأسها ببطء، وارتسم الخوف بعينيها: لم أرَ امرأة بهذا الاسم، ولا أذكر أنّ أحدًا تحدّث عنها هنا.

بدأت يديه ترتعشان، أمسك رأسه، وانخفض جالسًا على الأرض.

لا، مستحيل، كانت تلبس ثوبًا أخضرًا باهتًا، تمسح الأرض وتُغنّي، كانت تُحضر لي الشاي في كوب أبيض مكسور الحافة، كانت تبكي ليلة أن قرروا خروجي.

يوسف لم يكن بيننا أحد بهذا الاسم.

همست نجلاء وكأنّها تخشى أن يسمعهُ أحد.

نظر إليها، بعينين دامعتين، ترتجفان من الداخل:

هل أنا وحدي من رآها؟

_رُّبما.

غمرهُ صمت رهيب، كأنّهُ سقط فجأة داخل بئر.

همس وهو يضم يديه إلى صدره: إذا لم تكن حقيقيّة، فمّن الذي كان يحتضنني حينَ انهرت أوّل مرّة؟

مّن الذي قال لي: أنا أُمّك في هذا المكان.

رفعت نجلاء يدها، ووضعتها على كتفه: رُّبما كنتَ تحتاجها جدًّا، فخلقها عقلك!

حاول يوسف الوقوف بصعوبة أسند يده على الباب ليُساعده على الوقوف ثُمَّ خرج من الباب.

في شارعٍ جانبي هادئ بحيّ شعبي، الباعة يفترشونَ أرصفة الصباح، رائحة الخبز الساخن تتسلل من فرنٍ قريب، وضجيج خفيف يصنعهُ العالم الذي لا يتوقف.

خرج يوسف باكيًا بخُطىً متأملة، لا هي واثقة تمامًا، ولا مهزوزة كما كانت.

رجل في الخامسة والثلاثين، لكنّ ملامحهُ تحمل سنوات أكثر، وجهه نحيل، التقسيمات على جبهته ليستْ فقط من الزمن، بل من الوعي المُرهق.

لحيتهُ قصيرة، يغلب عليها البياض، يرتدي قميصًا رماديًّا باهتًا، يبدو أنّهُ كان أنيقًا يومًا ما، ومعطفًا طويلًا كُحليّ اللون، نظيفًا لكنّهُ لا يخلو من أثر الزمن.

بنطاله قاتم، مستقيم الخياطة، وحذاؤه أسود، لامع قليلًا، حقيبة قماشيّة صغيرة تتدلّى من كتفه، فيها أوراقه الخاصّة وبعض النقود التي جمعها لهُ العاملون بالمستشفى، وفيها بعض الدفاتر الأقلام ورُّبما بعض الذكريات.

وقف أمام عربة شاي شعبيّة على الرصيف، الرجل العجوز خلفها يجهّز الأكواب الورقيّة.

يوسف بصوتٍ هادئ: كوبًا من الشاي إذا سمحت.

نظر إليهِ الرجل العجوز، ثُمَّ قال مازحًا: يبدو أنّهُ ينتظرك يوم كبير.

يوسف ينظر إليه: أوّل يوم بعد غيابٍ طويل.

البائع يضحك: كأنّك خارج من السجن!

يوسف يبتسم بتعب: كان أضيق من السجن.

أخذ كوب الشاي وسار بخطواتٍ بطيئة، يشرب ويُراقب العالم.

مرّ على بائع كتب قديمة يفترش الأرض، توقّف فجأة.

وقعت عيناهُ على كتابٍ قديمٍ بلونٍ أبيض باهت (حول العالم فى 200 يوم) لأنيس منصور.

انحنى ببطء، أمسك الكتاب بينَ يديهِ كأنّهُ طفل صغير وجد لُعبتهُ التي أضاعها.

البائع: بعشرة جُنيهات لو تُحبّ قراءتهُ ولكنّهُ مُستعمل.

يوسف ينظر إليهِ بعينين حادتين: أنا أيضًا مُستعمل ومع ذلك رجعت أقرأ من جديد.

أخرج النقود، دفع، ثُمَّ مشى وهو يحمل الكتاب، جلس على طرف الرصيف، وضع كوب الشاي بجانبه، فتح الصفحة الأولى، وأخذ يقرأ بصمت.

لم يلحظ المارّة شيئًا، لكن في قلب هذا الشابّ تبدأ حياة جديدة مع مُغامرات جديدة.

تمّت بحمدِ اللّه.

مُحمّد عبد السّلام.